غسان كامل ونوس

خطايا

مجموعة قصصية

قصص عربية ٣٢

غسان كامل ونوس

خطايا

مجموعة قصصية

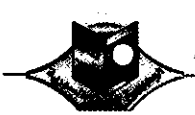

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٥

خطايـــا : مجموعة قصصية / غسان كامل ونوس .— دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٤ .— ١٤٤ ص ؛ ٢٠ سم .— (قصص عربية ؛ ٣٢) .

١- ٨١٣,٠١ و ن و   خ   ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ و ن و
خ   ٣- العنوان   ٤- ونــوس   ٥- السلســلة
مكتبة الأســد

قصص عـربيــة

«٣٢»

المطمورة

-١-

بحذر مددت يدي؛ أصابعي راغبة مشككة.. الملامح لا تفصح، والوقت غائم مغبر...

النديات والصدوع التي أعثرتني، لم تكن قادرة على إيقافي، فانثال دبيب مخرش ، نمال دافئ الوخز، سلس الصدى...

هي المطمورة إذن؛ لم أخطئ؛ أخيراً..!

لست متأكداً لِمَ أريدها الآن، بعد كل تلك السنين.. ما حاجتي إليها..؟! هل سأضع فيها شيئاً آخر؟! وهل لدي المزيد؟! لا أعرف.. هل سأخرج منها شيئاً؟! وما أحتاج ؟! وهل لا يزال فيها ما يفيد؟!

هي التي دعتني؟! ربما!

محاولة لا تفصح، وأنا لا أستطيع التأكيد، قبل أن أتأكد..
لا بأس! عل المحاولات التالية تفيد..!

-٢-

خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود..!

«القروش تنزلق من بين يدي، والأيام سوداء تترى..».

لكن لك حصة في المطمورة..!

« أية مطمورة..؟! أنا؟!»

◇◇◇

تمشي.. تركض.. تطلق ساقيك للجهات، دون رغبة أو تدبير.. تعبر الثغور والمفازات، تترك ثيابك تتصرف بحرية، تُدخل وتُخرج ما تشاء... تستنشق هواء مغايراً، تضطرب أمامك الجهات، وتضطرم في يديك المقابض، وفي رأسك الأفكار...

- لماذا لم تمد يديك إليها؟! هل أضعتها؟! أم تنتظر أياماً أكثر حلكة؟! أم ...

-٣-

تـــــمد يدها إلى صدرها عبر طيات الثياب، تخـــرج قبضـــة حائلـــــة اللون، معقودة بإصرار، مربوطـــة إلى عنق ينحُلُ، ويتجعد:

- اذهـــب إلى الدكان، اشتر لي بهذه حلاوة سكرية؛ أولادي لا يذكـــرون أن لهـــم أمـــاً؛ يخافون أن تضيع منهم مؤخـــرات زوجـــاتهم! يطمـــرون فـــيها أعمارهم وعقولهم وعواطفهـــم.. أنا لا أعتب على أبيك، ليس معه، على الأقل يزورني؛ لا تأت بالشوشية، لا أستطيع لوكها؛ اشتر بهذه لك؛ لا تخلـــط بينهما فتتوه! ليس معي كفاية، كنت أعطيتك.. لم يـــبق الكـــثير، مـــاذا سأفعل حين ستنتهي هذه المطمورة؟! أعمامك لا يشبعون من مطموراتهم، يخافون عليها؛ يظن كل منهم أنه ينام مع الجازية، أو سعدى الزناتية..! كيف لو كان لديهـــم ما يعبئ العين؟! العميان لا يأتون بما يقتنون، وليتهن يرضـــين! لـــو يطمـــرون في جب، لكانوا أغنى، وأولادهم

أفضل..! اذهب لا تتأخر.. ها!! أحب الحلاوة؛ أشتهيها، إن كنت أقدر أن أشتهي، بعد.!

- اعطيني لأذهب.!

- سأعطيك، حين تنفك هذه العقدة الـــ...

- هاتي لأساعدك..!

- لا.. تســـاعـــدني؟! ألا تـــــرى أنها مربوطـــة في رقبتي؟!

خيوط عديدة حائلة اللون نازلة من جانبي العنق، تضيع نهاياتها تحت الثياب.

- ناوليني من المطمورات الأخرى!

- المطمورات الأخرى؟! تحسب أن عندي كنوزاً..آ؟! لست وحدك؛ كلكم تظنون ذلك. ومن أين لي؟! يا حسرتي! لـــــولا عمتك، لكـــان المُشترَى بقلع عيني؛ أحب الحلاوة، ماذا أفعل؟!

- وماذا ستفعلين حين تنتهي المطمورة؟!

- أتشـــمس.. أنتظر الفرج.. وأتوكل على الله، وهذه المطمـــورات؛ لـــولاها لنهشتني الأمـــراض، بفضلها لا زلت أقوم، وأقعد.

أخرجـــت بـــيدها اليمنى بضعة أشكال: مثلّثة ومربعة ومدورة.. قبلتها واحدة واحدة، وأعادتها إلى عبها :

- مالك تنظر.. تتعجب؟! أنت لا تعرف قيمتها؛ غداً حـــين تكـــبر، ستعرف..! لأنك مطيع، وعقلك في رأسك، وأمين. لهذا ناديتك أنت؛ أولاد أعمامك سرقوني، أعرف من أرســـلهم؛ أتـــركهن لله.. أنت لست مثلهم؛ خذ.. اذهب؛ ســـلمتك لسيدي الخضر بو العباس، وسيدي المقداد، والشيخ أحمد قرفيص، وأسيادي....

في ذلك الحوش المحلل بالمهابة، والمطوق بجدار حجري مضعضع، تُتَوِّجُهُ أغصان الغار، فتعبق رائحة طيبة، مع روائح مـــتكاثفة أخـــرى، تنبثق من بضع مجامر موزعة على أطراف صندوق حجري مغطى بقماش مخضر...

-خذ هذه، وضعها هناك .

أمسكت قطعة النقود بإحكام، واتجهت حيث أشارت أمـــي: كانت جرة تكاد لا ترى، متربة كثياب الرجل الذي اســـتقبلنا وودعـــنا بخشوع. فتحة مدورة بغطاء حجري تعلو عـــنقاً متطاولاً، وشبه استدارة بارزة.. صدى رنين النقود في الجـــوف الغامض ظـــل يتردد في ذهني المبلبل، حتى ما بعـــد أن خرجـــنا — كمـــا دخلنا- محنيي الرؤوس والقامات. رغم أن الـــباب الذي قبلنا جنباته في الدخول والخروج، كان من دون عتبة...!

عـــادت بعـــد يوم من الدفن، بكت، ولولت، ونادت رفـــيق عمـــرها الذي أفنى حياته خداماً للمزار وزائريه، كما كانت تقول؛ لم تودعه، لم تتوقع أن هذا يمكن أن يحدث، بهذه الســـرعة عـــلى الأقـــل؛ كان في عافية حين ذهبت إلى ابنتها البعيدة الوالدة... لطمت وجهها كثيراً، وشدت شعرها أكثر، وهي تنبش التراب، وتقلب الحطب:

-يـــا ويـــلي علـــيك، ويا شقائي بعدك..! ذهبت بلا رجعة، مت و لم تقل لي أين المطمورة..!

حـــين مـــدت يدهـــا إلى صدرها، نهض قلبي؛ لم أكن أصدق أنها يمكن أن تفعل، حين سألت:

- أراك مهتماً به؛ هل أريك إياه؟!

ضـــحكت بـــتردد، وحـــين همت بإخراجه، أو هكذا حســـبت، وقفت مديراً ظهراً يكاد ينحل، مستعداً للهروب؛ شدتني بقميصي من دبر:

- اقعد؛ لا تخف؛ كنت أمزح..!

لم أتأكد من مشاعري ؛ هل أحزن أم أفرح..؟!

كانـــت شبه الاستدارة البادية خلل ثوبها الشفيف، تنثر فيّ مشـــاعر غامضـــة، تذكّر بما كنت أحسه تجاه تلك الكتلة الفخاريـــة شـــبه المستديرة، أيضاً، بحجم قبضة اليد، تلك التي كانت، احتازها أخي الكبير؛ كان يحرص أن يخبئها في مكان قاتم بعيد؛ أتسلل إليها في غيابه، أهزها مستمتعاً بالرنين، محاولاً

إنـــزال بعـــض مـــا فيها.. وفي بداية غيابه العسكري الذي سيطول، بحثت عنها. آن وجدتها، نهض قلبي، وكدت أبكي؛ تحسســـتها بحنو ورهبة، هززتها لأستمع إلى أصوات خشخشة الـــنقود الكثيرة التي كان يحظى بها زيادة عن حصتي. حاولت إخـــراج بعض منها؛ أدرت شقها نحو الأسفل، وضربتها على يدي الأخرى. أفلتت، تكسرت، وتبعثرت: أزرار وشكلات شعر وخرزات صغيرة وصور وأوراق تقاويم مصفرة...

✧✧✧

قـــال صـــاحبي؛ وكنا نسير في مساء جامعي شتوي، مختتمين دروساً نظرية وعملية مضنية:

- ما رأيك بهذه الـــ...

كانت تسبقنا بخطوات..

- هنيئاً لك؛ باستطاعتك أن ترى وتميز.

- لـــو كانت استدارتـــها مكتنزة ، كنت لاحظت ، وانشغلت..!

- أنا..؟!

من أين يعلم ذلك؟! لم أقل له، لم أتحدث في مثل هذه التفاصيل مع أحد بعد!

✧✧✧

إنـــاء دائري ذو لـــون حائل، كان أبي يخفيه في آخر لا يبزه زهوَّ لونٍ أو حجماً، مما يجعل عملية إخراج أحدهما من الآخـــر عصية؛ فهل كان ما فيه يعادل الجهد المبذول لتفقده كـــل حين: بضع أوراق لم أستطع فك طلاسمها، سندات بيع وشراء، دفتر صغير مجلـــد بعناية، ومكتوب بخط مميز، سرعان ما ينتقل من شفتي أبي إلى جبينه ثلاث مرات آن يظهر، وحين يعـــاد. ومحرمة صغيرة،كانت تنقبض أمي من مرآها، ولا تمل مـــن سؤاله عنها، ولا يمل من التجاهل، دون أن يرتفع صوته عـــلى غـــير العادة، ربما -كما صرت أفسر- للخشوع الذي يبثه ذلك الدفتر المسود.

-٤-

هل العلة في الاستدارة أو شبهها؟! أم أن مطمورة، أية مطمورة، وبأية هيئة، لا مناص منها..؟! لم يعد مهماً شكلها،

ولا لونها، ولا حجمها؛ هل هناك حل مغاير؟! هل من سبب آخـــر يبرر كل هـــذا الجدب، ويتجاوزها إلى أي اتجاه..؟! وإن كان...

(لو أنك تستحق مطمورة، لأتيتك بها! لكنك...!!)

هل هو على حق..؟!

كنت وراءه في كـــل أمر، أتلقى فتات ما يأتيه: ظل، أو تـــابع، أو صـــدى.. يسهر خارج البيت، وأُحبَس داخله؛ يرفع صوته في وجه أبي وأمي، ويرفع والدي يده علي؛ يستمع إلى أغـــاني الغـــرام مـــن المذياع المحرم علي لمسه؛ يسير مختالاً بـــبارودة الصيد التي اشتراها له أبي، رغم الفاقة. وعلي إخفاء المقـــلاع المطاطي، بعيداً عن استشعاره؛ ألبس قمصانه التي لم تعد تليق به ألوانها، أستخدم أمشاطه المعطرة، وجواربه المعفرة، وأحذيـــته الموارية؛ سراويله التي تقصر، أشدها على خصري بيدي، كي لا تنحدر، فتنكشف سراويله الداخلية..! أعطاني مرة حزامه، فرحت بحرية يدي طوال الطريق الذي يفصلنا عن

القرية البعيدة. وحين همنا بالدخول، استرده، وعادت يداي إلى سروالي.

كـــان علي أن أدبك لسعادته، وأتنهد لاكتئابه. وكنت أتمنى لو أستطيع إقناع الكثيرات اللواتي ذكرن إلى جانب اسمه، بالموافقة على ما يريد، وأقنع أبوي بذلك، لكي أستريح...!

حادثـــة لا يـــني يذكـــرها كل آن للتدليل على دقة اســـتنتاجه: لحقـــته باكـــياً في عرس موسمي يقام حول المزار القريب، نقدني حانقاً قطعة معدنية، أعطيتها لأول سائلة..!

أخبئ أشيائي في أي مكان لأتوه عنها، وأصرف جهداً كـــبيراً لإيجادها؛ أشياء كثيرة فقدتها؛ الدفتر الأسود المكتوب بخط مميز والذي صار لي، لم أعثر عليه.

أشياء عزيزة لا زلت أبحث عنها، غير متأكد أنها كانت لي ذات وقـــت، وهـــل حقاً قطعت المفازة الضارية بين الحلم والواقـــع..؟! وإن كـــان ذلك قد حدث، فهل كنت ما أزال على ما أنا عليه ؟! أم أن تاريخاً آخر، تاريخاً شخصياً، إنسانياً

كان سيسود؛ ربما تغير وجه العالم، ومسار البشرية..! ألا يليق بي ذلك؟! ألا أستحق دفئاً مستطاباً لأوقاتي الباردة؟! هي شبه استدارة ككل الأشباه التي شغلتني، والتي لا تزال تدور بي عبر مدارات الجري المبهم، منذ القذف الأعظم؛ شبه استدارة احتضنتها بكل ما أوتيت من عزم وحرمان؛ كانت تبتلع نشوتي، وتركلني بعيداً. حتى أنها عجزت عن رد اعتباري بشبه استدارة أخرى تحفظ ماء الوجه، تحمل شارتي، فيحيا ذِكري كما يحصل لكل الناس؛ حتى الذين لا يخبئون، ولا يطمرون إلا في وضح النهار، وفي علن الرغبة..!

قلت لها ذات نشوة؛ وهي تئن، وأضاعف انشغالي؛ والصدى ذاك يذكرني بذلك الرنين في المطمورات العديدة العنيدة التي ضاعت في الطريق:

- أنت مطمورتي..!

نظرت بانشداه، تقبضت حتى ركلتني:

- تريد التعويض إذن..؟!

- وما المشكلة إذا كنت كنزي؟!

تحركت أعضاؤها بلا اتساق:

- وأنا، أعيش فقيرة..؟!

✧✧✧

كنت أكثر الناس انشغالاً وأسى، حين تداعوا من كل فـــج، لينالوا حصصهم المجزية من الجرار التي تكسرت في قبور اعترضـــت طريق العمل الشعبي؛ لم يداوم في بدايته طواعية إلا القليلون..! ولم يصدقوا أنها كانت فارغة، فانهالوا جميعاً على بقية الطريق بقية الأيام..

«سأكتب بطاقـــة أسف في قبـــري، لـــمن سأخيب ظنهم...!!».

— ٥ —

أمد قدمي بحذر، تتزلق ساقي الأخرى...

الوقت غائم مغبر.. والملامح لا تفصح...!!!

✧✧✧

العازف

-١-

لم يغنِّ تلك الليلة..

انتظروه طـــويلاً، ونامـــوا دون أن ينفث صوت؛ إلا مـــــن استطاع خياله أن يحضر جوقة الحلم. ونامت الرباب نوم عانس.

ذات مســـاء سبق، حضر المغني، وكان القوس منفلتاً. ولا خـــيل في الحارة، والجيرة القريبة، ولا خيالون. لم يصمد الصـــوت المنفرد طويلاً. ولم تستطع القدم التي راحت تحفر في التربة المرطبة أن تسعفه طويلاً. ولا صوت درباز الذي حاول إزكاء المنافسة كان قادراً على التواصل. وبدت الموقعة بائسة؛ انعكـــس ذلـــك قلقاً وشحوباً في ملامح أبي وحركاته، حين رافقته آلياً.

-٢-

- قمحـــنا قصـــير السيقان يا أمي؛ مزاميرها القصيرة قـــاصـــرة عـــــن إطلاق الزفـــرة المجرحة: الثقوب ضامرة تتشـــرخ عـــند النفخ. والعيدان تتقصف تحت وقع الأصابع المـــلحاحة. هي الأرض الجبلية لا خير فيها..! أقماح الوديان أغنى؛ مزاميرها أحن!

- الأرض الواطئة تشرب ماءها وماءنا..

- وتطلق ألحاننا.

- لا يا ولدي؛ يمكن.. أحياناً! لكن..

-٣-

المســـاء مـــتحفز متكئ على سهوات رشيقة وحكايا مـــترددة، وأصوات تنوس وتعلو بتواتر فوضوي يقلقل الوقت والشرود والأمان، لتستقر على أصداء أنغام بعيدة أليفة ترسم البسمة قبل أن ينهد تساؤل:

- أمي.. أين أبي؟!

بضحكة تحاول بث الأمان:

- هل أنت خائف؟!

وتتابع برقة:

- لماذا لم تنم يا سعيد؟!

- نظـــرت إلى أخـــي الأصغر، كان غارقـــاً في النوم والضحك.

ماكـــرات بنات آوى؛ تتنادين عالياً على وليمة من ثمار الذرة النيئة . غبيات ؛ العرانيس ألـــذ كما نأكلهـــا مشوية ، أو مسلوقة؛ لماذا تحرمننا منها؟!

- كـــان الله في عـــون أبيك؛ يذهب كل ليلة متأخراً لحراستها!

تقول أمي ذلك بلا كبير أسف.

- ٤ -

الموســـيقا تتصـــاعد من آلات عديدة متشابهة؛ جوقة واحـــدة.. الكائـــنات في حركة صاخبة. تتوالف الإيقاعات

وتـــتمايز.. ألـــوان وأشكال زاهية.. عرائس وعرسان.. وأنا معهـــم! الجميع فرحـــون منشغلون. لا وقت للراحة، لا نوماً ولا هـــدوءاً. لا تعـــباً، لا مشـــاكل أو خصومات على أول الراقصـــين أو آخـــر الدابكين، مبتدأ الحلقـــات أو منتهاها. ولا حساســـية في أن تمســـك أيـــة فتاة يـــد أي فتى. الوقت يمضي بسعادة..

(لا تقـــــل تلك الجملة..!) سمعت صدى كـــلام بهذا المعنى..

(لك أي شيئ، كل شيئ.. شرط ألا تقول ذلك.!) .

آه..

قلت، وانتهى الأمر..!

كدت أبكي.. وماذا يفيد؟!

كنـــت عـــائداً من المدرسة وحيداً ذات ظهر ربيعي؛ الرطوبة والدفء والشذا والفراشات والسراب.. ألوان تطير.. رقـــص وروائـــح تزكم الأعضاء. وموسيقا عذبة تسللت عبر ترددات من الصدى العذب.

موجـــــات من الصفاء والنقـــاء تناوبت في الحضور والعبور. الطريق خالية، والـــوادي يضيق عند المسيل الـــذي لا يزال يشرشر ماء رقراقاً؛ تحت شجرة الزيتون التي تمسك يد العابـــر آنـــاء الفيضان، وفوق صخرة صغيرة تحاذي الجريان، وتحضـــنها أغصـــان الآس، كانت تجلس: شعر فاحم ينساب حـــتى يســـبح في المـــاء.. عينان ناريتان، وشفتان بللوريتان، وأصابع بأظافرَ طويلة تمسك شيئاً ما. يتمايل الرأس بانطراب، ويهتز جسدي تأهباً _ربما_ للرقص مع الإيقاع الجميل. وتهتز الصورة في الذاكرة:

- لا تخف يا بني؛ حين تصل إلى المسيل سم باسم الله. ولن يمسسك شر.

وقعـــدت عيـــياً محموماً سبعة أيام بلياليها، مع هذيان راقص أحياناً؛ كما قال أبي بعدئذ.

✧✧✧

قال درباز: لو أني لم أفعل !

سبعة أيام وأنا معهم، بينهم. كل ألوان السعادة والمتعة والفرح. كل أنواع الطعام والشراب؛ هي الجنة لاشك. لكني لا أستحقها؛ كبيرهم يؤكد كل وليمة عامرة:

- إياك أن تلفظها..!

لا أستحق تلك الجنة أكثر من أسبوع؛ خسارة..!

-٥-

« درباز أمهر الدباكين في المنطقة كلها. أقراصه في كل عـــرس؛ في أية قرية كان، وكائناً من كان العريس والعروس. ولا فـــرق في دعوة تصيب أو تخطئ. فصدى الطبول يكفي، وأنغام الأرغول لا تقاوم.

كنا نتبادل اللباس والأحذية. يذهب بعض منا في الليلة الأولى، ليحضـــر آخرون الليلة التالية. حضور درباز يضاعف الإثارة، ويصعد الوهج ».

كثيراً ما كان يحكي والدي.

✧✧✧

« نسيت نفسي.. الحماسة على أشدها.. عيون الصبايا تغـــزل دعوات ورغبات. كاد مسعود يحرجني، لكني ضيعت علـــيه الإيقاع؛ عرجته بقدمي الحافية؛ الحذاء يدور قريباً من ركبتي..!

أبـــوك يبـــيض الوجـــه؛ كـــان ذلك قبل أن يتزوج، فنخسره..!».

قال درباز..

✧✧✧

« في تلـــك الليلة ضرب مسعود النّوَريّ النافخ، انتزع منه الأرغول: هو من خرب الإيقاع، وأعطى الفوز لدرباز.

ركض به إلى أبيك؛ لم يكن قد صار أباك بعد..!

- من كان أبي يومها؟!

- لم تكن موجوداً.

- أين كنت؟!

- إذا بقيت تسأل لن أكمل الحكاية!

- لا أرجوك يا أمي؛ قولي: ماذا فعل أبي؟!

-حـــاول الـــتهرب؛ الطبالون كادوا ينسحبون. كان مســـعود مـــنفعلاً: أعـــادهم بالقوة، وأنزل حماد إلى المرسح بالأرغول.

(أنت أبوها؛ اعطها..!).

- أمي! أبي يعزف على الأرغول؟!

- كل الحاضرين دهشوا..!".

تنهدت: « تلك كانت ساعة النحس.!»

{ أتقولين هذا من قلبك يا بديعة..؟!} ويضحكان..

- وماذا جرى بعد ذلك يا أمي؟!

« حسب مسعود أن العلة في العازف؛ لو أتى بزرياب لعرجته!».

صـــحيح أن حمـــاد عازف لا يبارى، ولكن لم ينفع مسعود ذلك. وماذا ربح من كل ما قام به؟!

لقـــد جنى على نفسه وعلينا مرتين: حرق ثيابه/ ثيابنا، وذهبت بديعة إلى حماد!).

علي وعلى أعدائي يارب؛ المهم ألا تفوز بها أنت!! قال مسعود..

في الحقـــيقة حماد يستحق: كنا نلملم أمسيات الغربة، ندعـــك الهـــم والفراق، ونغسل أدران الروح بأنغامه العذبة وعزفه الفياض..

{ بعـــد مـــا ماتت البقرة الطيبة بعين ثاقبة؛ ذهبت إلى هـــناك. كنـــت ألاحقها بالعزف، مرضية كانت، لا تذهب بعيداً، فأتدرب طويلاً على المزمار..

كانوا قد سبقوني إلى بيروت القريبة البعيدة؛ اشتروا آلة العزف حين وصلت. يلحون علي كي أعزف. يبكون ويغنون ويزفرون ويضحكون. ويقطرون الوقت، ونقطر..!} .

-٦-

-مـــا لـــك لا تقارب الرباب يا أبي؟! أوصيتني مراراً، وخاصمتني لأني تأخرت في إحضارها.

- ليست حنونة؛ القوس ليس من شعر ذيل الخيل!! ولا خيل لدينا!

يزفر، فأقول:

- ذيـــل الخيل؟! ألم يجرك مربوطاً إليه حتى مخفر الدرك لأنك لم تعزف في عرس ابن الخولي؟!

- مـــن قـــال لك أن هذا هو السبب ؟! قل له السبب الحقيقي ياحماد. إلا إذا كنت تستحي!

تضـــحك أمي، يضحك أبي. أنقل النظر بينهما بشهية. تقول:

- يحـــق لـــك الضحك، فقد فزت في النهاية بزينة بني هلال؛ ألم يكن ذلك لقبي؟!

- لـــيس ذنـــبَ الخيل ولا ذيلها؛ الخيل طيبة أكثر من خيالها؛ كانت تحيد عن الحجارة والأشواك، فيعيدها إليها!

- يتحدث أبي موجهاً كلامه إلي مدارياً شيئاً ما!

✧✧✧

- لماذا الرباب يا أبي؟! أنت لا تجيد العزف عليها.

- الـــرباب أكـــثر وجاهـــة؛ الشـــعراء القوالـــون يستخدمونها.

- قال درباز: أبوك بارع على الأرغول أكثر.

- ألم يقل لك غير ذلك؟!

- نعـــم لقد أضاف ضاحكاً: اسأل أمك! قالت أمي: الأرغول للنَّوَر!

- أمـــا زالت تردد أقوال جدك؟! كان أقسى من ذلك الخيّال:

مســـعود يرعى الماعز في طريقهما: فارسان يتراقصان متعاليين على متنين كجبلين. يقدح الصوان تحت وقع الحوافر. بادر مسعود:

- مرحبا يا أفندي؛ يا أفندي مرحبا!

- قال الأول للثاني:

- هذا الصعلوك يضحك علينا؛ انزل وأدبه!

رفع مسعود رأسه الدامي:

- يا أفندي.. يا أفندي: أرجوك لا تؤاخذنا!

صاح الفارس بتابعه:

- يبدو أن هذا الفأر لم يشبع؛ إلي به!!

- أبي كان يريد مصلحتي؛ سمعتنا هي الأساس!

- أبـــوك قتلني يا بديعة؛ هل من مصلحتك أن تعيشي مع ميت؟!

قلت مخففاً من مواجهة وشيكة:

- لكنك قبلت يا أبي!!

- أمك كانت تستحق!

- أنـــا التي رضيت، وكان الخيالون لا يتركون ساحة دارنا؛ وابن الخولي؛ نسيت يا حماد؟!

- إذاً أنا أيضاً كنت أستحق!!

يضحكان وأكتئب..!

✧✧✧

- أبي ما هي الخليلة يا أبي؟!

- أية خليلة؟!

- الخليلة التي تعزف حين يموت الناس المهمون؟!

- من قال لك مثل هذا الكلام؟!

- سمعتهم يقولون ذلك؛ أمي قالت لي: الخليلة عزفت يوم مات جدك!

ظل أبي ساهماً، تنبه حين أضفت:

إذن لماذا طلب جدي منك ذلك الطلب مهراً لأمي؟!

✧✧✧

- ياويلك من الله؛ ماذا فعلت بأخيك الصغير؟!

- لا شيئ؛ والله لم أفعل شيئاً! كنت أغني له لينام..!

✧✧✧

المعزاة شيطان بقرنين، تجر أولادها إلى الأذية؛ تغافلني وأنا منهمك في صنع المزامير أكسرها.. لا أستطيع، لا أعرف..

كـــان في فمـــي أجربه، تناهت ألحان متعرجة متقطعة غيرمتسقة. لا تطاوعني الثقوب، الهواء يدخل ولا يخرج بحرية. لكـــن الصوت تطاول، استمر غير مفهوم، وغير معروف حتى بعد أن قطعته ورميته: قوياً مجلجلاً.

رفعـــت المعزاة رأسها، وأذنيها المقطوعتين، وارتفعت آذان أولادها التي لم تزل سليمة: كادت تجفل لولا أن هدأتها؛ كـــدت أجـــزع.. لـــولا أن ظهر مـــن بين الشجيرات مشـــرقاً يحرك رأسه في كل اتجاه. انقطع الصوت حين رآني، وصـــبغته حمرة الخجل. بدا ذلك على ملامحه وحركات يديه وسلامه الأخرس.

-٧-

- تأخـــر أبي يـــا أمـــي! ذهـــب ليأتي بشعر من ذيل الحصان؟!

- سيعود بعد قليل. نم يا سعيد!

- لن أنام قبل أن يأتي!

أنغام تطوف في الفضاء الغائم.

- قد يتأخر!

- ذهب بعيداً إذن! سيغيب كثيراً، كل يوم يفعل هذا!

- أخوك نام من زمن؛ أرجوك افعل مثله!

-نمت وأفقت مرات، الضوء قارب أن يطلع! أين أبي؟!

الأنغام تعلو وتتداخل.. تزداد عذوبة.

- أمي! أبي.. أبي يا أمي!

بدت أقل سعادة، أقل قدرة على إخفاء ارتباكها.

- هل تذهب معي؟!

- إلى أين؟!

- هيا! لا تسأل؛ إذا كنت تخاف، أوقظ أخاك الصغير.

- لا.. لا.. أذهب.

نمشـــي، ونتوقف. الألحان تقترب، تتصاعد، تتكاثف. الرؤية عصية؛ أشباح الأشجار والصخور، التعرجات والوعورة لم تثننا عـــن المتابعة؛ يدي في يـــد أمي. تشدني حين أعثـــر أو أحـــاول الـــرجوع. لا أعرف متى بكيت، وكيف تابعت منشرحاً.

في ثغر الوادي، على الصخور الناصعة المحللة بالريحان، كانـــت جوقـــة كبيرة من العازفين المنهمكين، يحيطون برجل منشغل بشيئ في فمه، يداه متشبثتان به؛ كنت مشدوهاً حين كانت أمي تركض إليه بلهفة واندفاع..!!

يـــدي

-١-

سلمت كما يسلم باقي البشر. حاولت أن أكون ليناً. لكـــن اليد الأخرى التي سحبت بسرعة رسمت ملامح انقباض عـــلى الوجـــه الذي بدا مريحاً أول الأمر. وهذا ما جدد حال الارتـــباك الـــتي تداهمني في كل موقف مشابه، وتهيمن أوقات الـــتعارف الأولى التي قد تطول. خاصة حين تتوزع النظرات المقابلـــة هيكلي الذي أحاول موازنته بكثير من جهد الذي لا يجـــدي. فـــالكم المنـــتهي إلى جيب السترة، أو المسبل دون انشـــدادات لا يـــترك فرصـــة التســـاؤل تدوم إلا هنيهات، فتضطرب اللحظات، وتتقلقل المقابلة دون أن يكون المطلوب من الآخر أمراً جللاً، أو حتى من دون مطلوب.

- ٢ -

- احمد الله أن الإصابة لم تكن أخطر، أو لم تكن لليد اليمنى!

قال المواسون

معهـــم حق؛ يمكنني بيدي هذه أن أمارس كل ما يمكن أن يقوم به الآخرون: أكتب، ألوح للغائبين والقادمين، أمسد شـــعري، أطلـــب إذناً بالكلام، أحتج.. أربت على أكتاف أطفـــالي؛ لو كان لي أطفال! أضغط على الزناد؛ لو كان أمر الإطلاق جدياً. أستطيع أن أقوم بطقوس سرية مهمة. ويمكن أن أضـــغط على أعضاء شهية بارزة في الطريق، إشفاقاً على الثوب الذي لا ترحمه صاحبته، كما أرغب، وتتمنى ربما.!

ويمكـــن أن أصـــفع بها من يتناولني شزراً؛ لو أجرؤ! وأحتضن من أحب، بصرف النظر عن تبعات إكمال الحضن، ممـــا يوفـــر الكثير من الجهد في فك العرى الذي سيحدث. ويمكـــن أن أحـــك الكثير من جلدي بظفري. ألعب وأمرح، وأقوم بأية مواجهة قاتلة.. عن بعد.

يمكن أن أقوم بكل ذلك دون مشقة أو ارتباك.. لو لم أكن أعسر..!

-٣-

أفكـــر أحياناً أن ما حدث مـــريح، وهـــو يتلاءم مع مـــا درجت الطبيعة عليه من تكثيف للمهمات التي يمكن أن يقوم بها عضو من الجسم. الفم يتكلم ويضحك ويمضغ الطعام ويمـــرر الهواء، هناك أعضاء أخرى تتحمل تبعات الإخصاب، إضافة إلى إخراج الفضلات. فهل يحدث أن نرى كائنات بعين واحدة، ورجل وحيدة ومنخر منفرد؟!

حـــين كانـــت الأوامر تتعالى منهدة: أسبل! استرح! اســـتعد! تتواقع حركة اليدين والرجلين.. لم أكن أنزعج. لأن يدي تأخذان الوضع اللازم دون إرادة. ويستمر أمر الاستعداد زمناً طويلاً. يفقد الكثيرون توازنهم، ويسقطون.. كنت أشد يـــديّ على جنبي بتحد، دون أن أسمح لأي منهما أن تتحرك، حتى لطرد ذبابة دبقة، أو مسح عرق يغشى العين..

- ٤ -

ملاحظـــات كثيرة كنت أحسها على ملامح الناظرين، حين لا يفصحون عن دهشتهم من أصابع يدي المتجمدة على شعرة في رقبتي او خدي. رغم الألم الذي يتركه ذلك، والقلق الـــذي ينعكس من على أوجه الآخرين، بعد الانشغال الذي يـــبعدني عن المشاركة مع العدد الوافر من الحضور. أو يقذفني مسافات تتناوب فيها أمواج المتعة والألم بجدية وهم!

حين أقلعت عن تلك العادة، كان الحك ملاذاً؛ أماكن عديدة من الجلد، ثم تبادلت الكفان والأصابع الحك الذي قد يصل حد التجريح. هذا إذا كان من غير الممكن تناول أماكن أخرى، وأعضاء أكثر متعة وسرية..!!

- ٥ -

مشكلة حرية اليدين.. أين أضعهما؟! في الجيبين؛ يمكن أن أسقط فيزداد احتمال الأذى. لا بد من تحريكهما ليتوازن المشـــي. صرت أعرف ضرورة ذلك بعد الذي حدث. تتغير

المسألة حين تشغل إحداهما بكتاب أو محفظة. ستتحرك الأخرى وحيدة.

وماذا تفعل الأصابع في هذا الوقت؟!

مشكلة حرية الأصابع، السجائر صارت ملفوفة. والسبحات لم تستطع إشباع نهمهما، ولا تشكيلة واسعة من الميداليات بأسمائها المحبوبة والمرجوة.

ماذا أفعل إذن؟!

تسبل هي الأخرى بلا غاية؟.! تلتف السبابة على الإبهام، أم تنفرد الوسطى؟! لكن في وجه من؟!

ما زال ذلك ممكناً حتى بيد واحدة؛ لو كنت أقوى.. وهل يكفي؟!

-٦-

كدت أصفّق !! أحسست بالفقد حين تعالى الضجيج الذي تبعثه الأكف المتصارعة، ما الذي سيقولوه عني؟! لا يعجبه هذا الكلام؟! وهل أستطيع؟! وحدي من بين الحشد

لا أصـــفق..! هـــل أرفع يدي؟! سيظنونني معارضاً..!! هل أنسحب؟! أم أخفض رأسي علّي أضيع في الزحام؟!

أحياناً كثيرة كنت أحاول أن أتخفى كي لا أمارس فعلاً غـــير مقتـــنع بـــه، لكني الآن لا أستطيع حقاً. فهل ينتظرون ليتبينوا؟

-٧-

إحســـاس ممـــيز مـــؤس انتابني حين أمسك الكثيرون للدبكة..!

لم يـــدعني أحـــد، لم أعتد على هذا؛ لم أفعل في كل مـــا مضى.. كنت مشغولاً؛ حتى الرقص لا أستسيغه. صحيح أنـــه لا يحتاج إلى مسك اليدين، لكنه يحتاج إليهما للحركة، للانفصـــال .. للـــتوازن؛ لن يتجاوب الكم الأيسر بما لا يثير الريـــبة أو الملاحظـــة..! لم يدعني أحد، ذلك حسن.. لكن إحساساً ما آلمني لو أني أستطيع..!!

وقـــت طويـــل صرفه المدربون لإقناع طلقاتي بإصابة الهدف، لم يكن ممكناً استخدام الكتف الأيسر. الفتحات التي ستلفظ الفوارغ هي نحو اليمين. هل كان ذلك من حظي؟! أم أن حظـــي السيئ أبعدني عن مواقع الميدان إلى أماكن أخرى أكثر أمناً واستخداماً للسلاح.

في الـــبداية لم يكن خياراً؛ حاول والدي وأخي الكبير وكبار العائلة إقناع يدي اليمنى بالكتابة. لكن القلم سرعان ما يهـــرب إلى الـــيد الأخـــرى. وصار شعاراً! كنت أرمي بها الحجـــارة أبعد. وأصيب أكثر. وأباغت خصمي بضربات من حيث لا يحتسب. كثيرة هي الشجارات التي حسمتها بسرعة. وقـــد ظن الخصوم أنهم فائزون. بنادق الصيد العتيقة لم تكن تحفل بالكتف التي ستستقر عليها، ولا بالإصبع التي ستضغط. المهم هو الزناد والهدف..!

كثيرون من مشاهير العالم لهم مثل هذه الميزة. إنها دليل عـــبقرية. حاولـــت بعـــد فترة أن أبرر أو أصد الملاحظات والأسئلة.

الآن أحاول أن أبرهن العكس.. فهل أستطيع.

-٨-

لـــو كنت في مواقع متقدمة لفقدت يدي في معركة مع عدو معروف. ولاستفدت ربما من مزايا ذلك واحترامه! لو.. ربما كنت فقدت حياتي كلها، وكانت المزايا أكبر.. لو أن لي وريثاً!

أفكر الآن.. بعد الذي حدث.

-٩-

أمدهـــا ، أديرها، أفتلها، أشدها.. أحرك الأصابع كما يحلو لي..

هـــي الأقوى الأكثر تجاوباً؛ الغريزة تقول ذلك، الواقع يؤكد هذا، والجموع تقره، تمارسه، تفرضه..

كـــان لي رأي آخر، يد أخرى، مبرر قوي .. الآن لم يعد ذلك المبرر موجوداً، فماذا سأقول؟!

أضحى الأمر معكوساً، لم أقتنع بعد؛ لا أستطيع..!!

أمدها لأسلم كما يسلم البشر.. أحاول أن أكون ليناً، لكن انقباض الوجه المقابل.. لا يرحم..!!

قوس نصر..

-١-

بصـــرف النظر عن ترهات المتنبئ الجوي.. تلك التي لم أعد أعتمد عليها كثيراً في تحديد جدول تحركاتي، كسواها من التنبؤات الأرضية، هبت الريح عاتية في هذه الساحة المفتوحة عـــلى كـــل الاحتمالات. قلقلت أسلاك الكهرباء التي أنّت، وأقلقت اللافتات المنصوبة في كل اتجاه، وهزت أقواس النصر بعـــنف. لكـــن القلق لم يصل حدود الخوف عليها؛ فبعضها صامد منذ عشرات السنين، وبعضها الآخر مستحدث مدعم. يـــبدو ذلـــك للغريب أيضاً من تلك الكلمات والأرقام المثبتة علـــيها، والألوان التي تزينها، والتي لا تترك مجالاً لأي شك في قدرتها على مقارعة المناخات، ومواجهة الفصول. وإن شابتها تغـــيرات تصـــل أصـــداء التحذيرات من عواقبها من أقاصي الدنيا..!

الفـــرح الذي لا يني يداعبها، والهتاف الذي لا ينفك يناغيها، والتصفيق الذي لا تنوس أصداؤه من فضائها، طقوس تجعل منها قلاعاً غير عابئة بصروف الدهر، وطقوس الفناء.

شـــددت طرفي سترتي هاماً بالمضي في أحد الشوارع، بعدمـــا سمَّرتني الحيرة مدة والشك فترة أخرى، والتردد الذي جعـــل اختـــياري الشارع ذاك أكثر الاتجاهات جدوى. وإن كانـــت لا ترقى إلى معنى الخروج في مثل هذا الجو، أو تعادل جوهره.

لم يكن الوقت ضاغطاً إلى الحد الذي يمنعني من التفكير في أن التسمية ليست دقيقة من جهة الشكل فحسب؛ فبعض تلـــك الأقواس لم تكن قوسية تماماً، أو حتى منحنية. بل إن لها أشـــكالاً مســـتطيلة أو مربعة. لكن ارتفاعاتها تستطيع إمرار الآلـــيات المتسارعة، والرؤوس التي لا تشمخ كثيراً. ويمكنني الاســـتناد بأمـــان إلى أي من جذوعها اتقاء لهبة عاتية تترك ارتجاجـــاً محسوساً في عناصرها، يمكن سماع أصدائه حتى من قـــبل العابرين المنشغلين.. ذلك الاستناد الذي أجدني مدفوعاً

إليه رغم أن أياً منها لا يحمي من مطر، ولا يصد ريحاً. لكنها تمنع تراجعاً مضغوطاً، أو تحول دون تسارع غير محسوب..

هكذا ما زلت أحسب..!

-٢-

لم تكـــن ريحاً ولا عاصفة؛ هدوء وصمتاً، كأن القبور مقاعد خاوية لمدعوين أفلوا للتســو،

والشـــجرات المتعالية مظلات رأفـــة لأرواح محمومـــة تستحق..!

لم تكـــن غير ذلك، مذ كان صغيراً يتقافز وأترابه فوق الصناديق الحجرية المنتظمة،

والإطارات المقلقلة، ويتمرغون في رطوبة التربة المورقة، ويتبادلون الحكايا والأغاني

والشتائم والنصوص التي يستظهرون.

زياراته التالية لم تتعدَّ سماع الوصايا المكرورة والعبارات المدبجة التي تختلف إيقاعاتها حسب

المسجى، والآذان المشرعة لالتقاطها.

وكثيراً ما تسلّق ببصره الجذوع والفروع التي تمتد بعيداً وتصور الزمن المديد الذي عبـــــر،

والمشـــاهد التي تتكرر إلى ما لا يعرف من حين. وربما تساءل:إلام تستطيع تلك الأغصان

التحليق؟!

ثم يؤوب إلى تكبيرة مفاجئة لائماً تقاعسه عن المتابعة، محملاً شروده الذي ما استطاع لكبحه سبيلاً مسؤولية ذلك.

تلـــك العـــادة الـــتي طالمـــا أوقعته في مهب سيل من الملاحظـــات والتنبيهات منذ صفوف المدرســـة الأولى، عبوراً إلى كل ساعات الإصغاء التي أخذت جل عمره، في كل مكان عاش فيه.

ووجـــد نفســـه مذنباً في كثير من الحالات، ويستحق العقاب الذي لا يتأخر..

« المفارقة التي ضاعفت من بلواي حين أتهم وأحاسب على إصغائي، في حين تبتعد التهمة وتبعاتها عن القائل والفاعل. بصرف النظر عن مواءمة الفعل للقول، أو معارضته له » .

وصايا وتحذيرات وتحليلات وتنبؤات وتعهدات ثقبت أذنيه.. أفكار مصفاة، ومبادئ مكفولة، وفضائل مؤكدة، ونهايات محتومة، وأعراس قادمة.. و"لم أعد أحتمل!".

ربما تأخر في ذلك، وربما كان لفضيلة الشرود دور في هذا التحمل، تماماً كما كان لها فضيلة الخلاص..

-٣-

هي نعمة الفكر ونقمته، ليس من الممكن أن تمر فكرة دون غربلة، ولا رأي دون ربط بما قد سلف..

ليس هذا باليد، القناعة كنز لا يفنى، ولا يمكن الحصول عليها بيسر..

قال الشيخ في البداية: سلم تسلم..!

ثم قال بعد زمن: من يضلل الله فما له من هاد..!

قلت: وما ذنبي إذن؟!

قـــال المسؤول: أنت رجل متعِب، الشرود سيقتلك.. دعـــك من أوهام التجريد، وهلوسة المبادئ والأحكام؛ هذه حياة؛ الفكر ينمى بالممارسة، النظرية تغتني بالتطبيق..!

- ولماذا النهايات السعيدة محتومة إذن؟!

- إذا كـــان التوجه سليماً، والنيات صادقة، فلا بد من حسن الختام..!

- كل الدروب سالكة في رأي سائريها!

- هناك فرق.

- ومن يحدد هذا الفرق؟!

- الطليعة الواعية؟!

- وأية طليعة حمقاء تنفي عن نفسها صفة الوعي، وتمثل التطلعات، وتفهم الأوضاع، ورسم الآمال؟!

- الشرود أهون..!

وقـــال أبي: أنت ولـــد عـــاق؛ مطرود مـــن إرثي، ورضاي..!

وقالـــت المرأة التي شاركتني جزءاً من عمري: ستظل شـــارداً فيها، هل تستحق إلى هذه الدرجة؟! آه لو أعرفهـــا، أو أحتضيها..!

- ٤ -

لم تكن زيارة؛ خطوة باتجاه ما.. ترك الحبل على غاربه ذلك الضحى. وجد نفسه يمشي باتجاهه..!

لو كانت له أرض..! لو كانت أرض مشاع في متناول الوصول..!

مشروع أوبته إلى القرية على المحك؛ هذا أول يوم..!

لـــو أمكن له ذلك، لكان عليه تدبير سكن. الزوجة لن ترضى بسهولة، والأولاد تعودوا بيئة مختلفة.

سيحاول.. لن يعدم القدرة على الإقناع، حين يقتنع..

الشـــرود لايـــزال الخيط الذي يشده إلى الوجود. وإن كانت الذكرى تخاتله كثيراً، فيفتقد التركيز..

« العاطفة سوس الفكر »

طبـــيعي أن يتذكر.. الطفولة والصبا والأهل والأتراب والأحـــداث..! لا بأس بالسوس..! هل يحيا الإنسان هيكلاً معدنياً فحسب؟! بل هو لحم ودم ومشاعر.. رغبات وآمال.. حســـب أنها نضبت؛ لكنها تعود؛ المكان والعناصر والتفاصيل تـــنقر بود ملح على أوتار القلب والإحساس.. سيعود إلى هنا ذات وقت، وسيصغي إلى تلك الوصايا والأقوال، ربما بخشوع أكـــثر، ومـــن دون شرود؛ أو بشرود أقسى مـــن دون ملام أو تأنيب..!

لمـــاذا لا يبكر إذن؟! ليعد برغبته قبل أن تفرض عليه. لـــيكن ذلك الأمر الثاني الذي يمارسه من نفسه، بقناعته. قبل أن:

(مطـــروحاً أمام جمع من الناس، جمع ليس كثيراً، كما يحـــس.. لـــو كنت لا أزال في مركزي ألا يكون الحاضرون أضـــعافاً؟! هل يشرد الواقفون؟! ولماذا يكسر الخطب الواقف أمـــامهم في الجمل والتعابير؟! لماذا لم يأتوا بالشيخ الأهم؟! ألم يدعه أحد؟! لو كنت ما أزال...

لماذا يذهبون سريعاً؟! ليتريثوا! ليذكروني أكثر! ليقرؤوا التراتيل على دفني أكثر..!

لو كنت...).

طقطقـــة، وصـــوت صـــاعق.. السماء أطبقت على الأرض..!

-٥-

لم يـــتخلص مـــن تلك العادة تماماً.. وما تزال القناعة عصية.. ولا زال تحليل تلك الحادثة يصيبه بالعناء، وأصداؤها تحبطه. رغم أن الأقوال الكثيرة التي تناهت إليه في المشفى وفي البـــيت، من المحبين والشامتين على درجة واحدة من العذاب لم تساعده على توجيه الدفة بالاتجاه الممكن؛ لا زال غير قادر على الاقتناع..!!

ماذا يعني أن يقع غصن مديد من شجرة مزمنة في تلك اللحظة بالذات، وفي ذلك المكان حيث كان يعبر؟!

لا لن يعود عن قراره، لم يقتنع بذلك..!

حـــاوروه بعد الذي حصل.. توسطوا من أجل ذلك؛ فكـــر.. وهـــو على الفراش. لم يكن القرار ممكناً؛ كان ضعيفاً مشوشـــاً محبطاً.. وعدهم أن يفكر بالأمر آن يشفى.. وهاهو يفكر؛ ما يزال يفكر.. و لم يتوصل بعد إلى قرار!

هو الآن في الطريق إلى..

« لا زلت أبحث عن قناعة.. » .

لم يكن له رأي محدد يوماً؛ رأي قاطع نهائي.

« وهـــل في الحـــياة ما يسمح بذلك أو يبرره؟! كنت أصغي؛ نعم.. أتساءل.. أجادل أحياناً.. أناقش لأقتنع، فيعجز الآخـــرون عن التفسير..! وينصحونه بالتسليم؛ ذاك الذي لم أستطعه! فهل أستطيع ذلك الآن..؟!» .

العمـــر شـــد في المسير، وتلك الرطوبة المورقة والأفياء الظلـــيلة والمقـــاعد الخاوية تنتظر، وهو قادم إليها لاشك..! والجمـــوع ســـترافقه، لو عاد إلى موقعه، مسؤوليته، ستكون الأعـــداد أكثر.. والخطاب أفصح وأوضح.. « لا يغني ذلك

ولا يسمن من جوع! ». كان يقول هذا دائماً، وهو صحيح. لكـــنه الآن يحـــتاجه؛ بل إنه في أمس الحاجة لكي يمحو آثار الحادثـــة، أن يغسل أصداءها بصدى أقوى، يتردد بعد غيابه الأبدي..!

الخـــروج في هذا الجو العاصف ليس سهلاً.. والرجوع ليس ممكناً دائماً.. فإذا ما تردد الآن ، قد لا يعود إليه؛ « لن أضعف من جديد، بل: ربما لن أقوى على ذلك مرة أخرى».

« لا بأس ..لا بأس! ».

✧✧✧

حين اختار الشارع الذي توجه فيه، اتخذ قراره ذاك.. لم يكـــن يعلم بالذي سيجري..! لم يكن أحد يدري بقراره الـــذي اتخذ.. ولم يكن بعد باستطاعته رد التهم التي رافقت مشواره الأخير، وتردد طويلاً بعد غيابه المديد..

لمـــاذا في تلـــك اللحظة، وفي ذلك المكان سقط ذلك الهيكل المعدني من قوس نصر محتم..!!

✧✧✧

الصداع

-١-

كارثة لا تنتهي، كابوس يهيمن كل وقت اليقظة، وفي أي مكان؛ موجات حادة متتابعة تحس معها أن تصدعاً هائلاً يصيب المخ، فتفور الأوجاع، وتمور الأحاسيس، وتتوالى المشاهد ضارية قارسة..

(فوهة معتمة تغوص عميقاً، سرعان ما تبتلع الصرخة اليتيمة التي تند عنه بعد الطلقة الوحيدة في الرأس المعصوب المسنود على الحافة..)

ها أنا أعيد كلامه ذاته وقد بدأت موجات الصداع بالتحرك منذ البارحة، وها هي تشتد مع مرور الوقت وتطاول المسافة..

- ٢ -

حـــين أمرته أن يردم تلك الحفرة، بدا كأن جبلاً اهد على صدره؛ أطرق، مشى ببطء وتثاقل، تردد في الصعود إلى الجرافة، دار حولها مرات.. طلبت منه الإسراع بردمها قبل أن يهطـــل المطر فتتضاعف خطورة الاقتراب منها. همّ. تراجع. وقبل أن يتقدم توقف ضجيج المحرك.. سألته:

- ما الأمر.؟!

قال مطرقاً ماسكاً رأسه بيديه:

- لا أدري يا أستاذ؛ رأسي يوجعني؛ انطفأ المحرك..

- ما علاقة رأسك بالمحرك؟!

- لا أدري.. توقف المحـــرك، رأسي يوجعني، الصداع عاد إلي..

- وما العمل الآن؟!

- نريد ورشة الكهرباء من المديرية.

(أبرر للأستاذ قلقه وانقباضه، فأغلب آليات المشروع لا تـــدور مـــن نفسها. وتحتاج ورشة من الفرع، تدور كل صباح. وهي قد غادرت مشروعنا منذ قليل، وسيمضي وقت طويـــل قـــبـــل أن يكون بإمكانها العودة إلينا، بعد أن تنهي جولـــتها على آليات المشاريع المبعثرة في بقاع المحافظة. وأبرر صراخه:

- سيضيع النهار دون أن ننجز شيئاً..

وسيصـــرخ في اليوم التالي أكثر. حين أتوقف بالجرافة غاصـــة بالـــتربة والحجارة على حافة الحفرة، وأصرخ أيضاً ماسكاً رأسي باليسرى، ضارباً باليمنى على السواقة:

- رأســـي يوجعني، لا أستطيع.. لا أستطيع.. توقف المحـــرك رأسي يوجعني؛ هاتـــوا آلية أخرى.. سائقاً آخـــر.. لا أستطيع..!

لا أدري كيف قلت ذلك. حين يداهمني الصداع، أكاد أفقد الوعي. الأستاذ يعلم ذلك؛ الكثيرون يعرفون..

- أنت تعلم أنه ليس في المؤسسة آلية أخرى بجرير..

- جرير أو دولاب.. هاتوا سائقاً آخر.. آلية أخرى.. رأسي يوجعني.. لا أستطيع..!).

-٣-

(كنت أتمنى لو أني معصوب العينين، أو مسدود الأذنين، أو مخدر الأحاسيس.. لكن الوقت المتروك لاستعادة الهدوء وإمكانية السيطرة على الطلقة التالية لا يلبث أن ينتهي، ويبتعد زميلي مفسحاً الدور لي..

صرخت: لا.. لا أستطيع..كان الرأس التالي صغيراً، وقامته ستضطرني للانحناء..

لكن صوتاً زلزل كياني:

- إن لم تفعل، سترافقه..

كانا اثنين، حصة كل منا واحد..!

وعلى الرغم من أن أيام الحادثة وسواها تغور بعيداً في هوة التاريخ، فإن نيرانها ما تزال تلفحني.

قال الطبيب المهم المعالج:

- ستنســـى حين تنخرط بالحياة. تزوج فتنشغل بالهم والاهتمام، وتنسى..

لم يكـــن عـــلى حـــق؛ هل يعرف ذلك ويحتال على صداعي؟!

هـــذا الصـــداع الذي يعود ضارياً. منذ أن علمت أن زوجـــتي حـــامل، لا أطيق رؤيتها، لا أحتمل تصور ولدي.. كـــيف يمكـــنني أن أربيه؟! كيف سأعامله وأنا أرى في الحلم مرات مسدسي مصوباً إلى رأسه على حافة هوة غامضة..؟!).

- ٤ -

الطـــريق تبتعد عن المشارف المأهولة، ويزداد الاتساع قفـــراً، واللـــون يشـــحب مع نوسان في لون الأخضر الذي يتلاشـــى.. الصومعة المتعالية آخر البنيان الممتد، والذي يظل باديـــاً لمسافات طويلة: ها هي هزات متتالية من التصدع تعيد الفكـــر إلى تحرقه، والجسد إلى توفزه، والوقت إلى بساط من شوك خبير:

- قبل أن تباشروا الصب، تأكدوا من أن أحداً ليس في الجدار..!

ضحك النجارون والحدادون وعمال البيتون..

- لا تستغربوا.. حدث مثل ذلك في أحد الأعمدة الطويلة في سكة الحديد.. نزل الخبير ليتأكد من سلامة تحضير أحد العناصر؛ تأخر؛ نسي العاملون ذلك؛ أُعطيت الأوامر للصب.

- وماذا حل بالخبير..؟!

-٥-

- أستاذ! أرجوك.. لا أستطيع..!!

كان يمسك رأسه بيديه مكفهراً! سألته باهتمام:

- ما بك يا سعيد؟!

- لا أستطيع يا أستاذ؛ الصداع سيقتلني.. أرجوك. انقلني إلى مكان لا يوجد فيه بيتون. ارفع اقتراحاً بنقلي خارج المؤسسة، خارج الوظيفة..

- لماذا؟! وما حكاية هذا الصداع؟!

أمسكت رأسي بكلتا يدي:

- البيـــتون قـــاتل يا أستاذ، قاتل. البيتون. . . آه! لماذا يعصر الإنسان؟! يضغط على جسده فيتفصد من كل فتحات وجهـــه، مـــن كل رأسه.. الإنسان حياً؛ رأيتهم يضعونه في برميل، يصبون حوله المجبول البيتوني إلى رقبته..!! تصور! لا.. لا أســـتطيع.. لمـــاذا يفعل البيتون ذلك؟! لا أقدر أن أتحمل البيـــتون؛ أكرهه، أمقته؛ أكره نفسي.. أكره الحياة.. أستاذ! أرجوك ابعدني عنه، انقلني أرجوك..!!

-٦-

الشساعة، وامتدادات الآفاق، ورقص السراب يقاطعنا مـــن بعيد.. أصداء شروخ إضافية. أسئلة وترددات وأصداء: «لمـــاذا هذا البعد؟! ما هذا المشروع الذي يتطلب رجالاً ثقة، أناســـاً من فصيلة الأوادم؟! ربما من جناح الصم البكم العمي الذيـــن يفقهـــون، فـــتزداد خصالهم قتامة، ومساماتهم كثافة

تتناســـب مع هذا البعد، وهذا الرشد الضائع في صحراء تبدو من دون نهاية..

تلكـــم بعض أناس يحفرون شيئاً ما. لعله خندق يخدم ذلك المشروع.. المشروع الذي نساق إليه!

بـــدت أدواتهم أكثر قرباً. يحفرون بنهم.. القيظ والغبار والـــبعد يجعلون منهم فرساناً في معركة مغلقة، لا مناص من التخويض فيها بكل العزم والشراسة..".

هـــذا ما خطر في باله المشـــوش؛ هل هو في طريقه إلى خضم تلك المعركة؟! وماذا هناك؟!

الوجع يتصاعد، والإحساس العارم بالألم يتضاعف:

(- ما رأيك بهذه الحفرة؟!

- مناسبة؛ أكيد أنها تناسب الأحجام المطلوبة..!

- أوه.. وتزيد.!

هـــذا جيد؛ على كل الزيادة أفضل من النقصان، وإن كـــان في هذا خسارة مضاعفة: جهد الحفر وكميته، وكمية البيتون، وجهد تنفيذه، وكلفته..).

(ــ لا أحتاج بيتوناً، التراب يكفي..!!

- لا.. مستحيل؛ الأساسات أصل البناء، واستقراره من قوتها واستنادها الصحيح على أرض صلبة..

- أما سمعت يا أستاذ؟!

- ماذا؟!

- كانوا يطلبون من الأسير أن يحفر حفرة على طوله. وحين ينهيها يتكوم فيها بطلقة واحدة في الرأس.. طلقة واحدة.. ليس إلا..!!).

✧✧✧

(- ما رأيك بهذه القواعد يا أستاذ؟! ألا تصلح أساساً لأفعال ومبادئ وتحركات لو كانت تستحق..!!

يضرب على رأسه، ويقفز من أرض الحفرة:

- لا.. لا أستطيع.. لا أقدر..!).

✧✧✧

- لا أستطيع لا أستطيع..! لا يمكن..!!

- أستاذ ..أستاذ.. مالك؟! لماذا تصرخ هكذا؟!

- آه عفواً.. لا شيئ.. لا شيئ!! هل مازال المشروع بعيداً؟!

- لا لا.. بضع دقائق.. دقائق ليس غير..

ليـــتها لا تنتهي.. أو أنتهي!هل نجد هناك حبوباً لوجع الرأس..؟! يكاد يدمرني ويتضاعف؛ أحس أن مطارق تعصف بي ومخـــارز تشرخني. لم أعد أستطيع تحمله. و زوادتي فرغت من الحبوب.!

-٧-

بضـــع آليات تتحرك في بحر من الغبار والقيظ.. بضع عمـــال ينصبون براكات.. عند أول محرس قال الواقف هناك محيياً بضحكة مصفرة:

أهلاً برئيس مشروع الـــ.....!!

كـــأن صـــاعقة نزلت على رأسي. دارت بي الأرض طويلاً.. حتى ضاع الإحساس بالوجود..!!

✧✧✧

الوريث

يمكنك أن تبتهج، أن ترفع رأسك وتضحك ملء الدنيا كضحكته التي ستملأ الدار حبوراً؛ سيزف الأعياد تترى. أو سترقص الدنيا معها..

كان يمكنك أن تكون مشغولاً أكثر؛ تبحث عن لعبة مناسبة أكثر من تلك التي أحضرتها: سرير بسبحات وأجراس وتعاويذ.. هزات أكثر حنواً.. بثياب أزهى.. بربطة شعر أدق..

هي الآن مشغولة؛ أو توقفت عن انشغالاتها تلك. لأن حركتها الدائبة لم تعد تليق، ولن تستطيع بعد الاستمرار فيها. أكملت - لا شك- استحضار كل ما يلزم. لعلها الآن تنتظره/تنتظرها..!

ليست وحدها؛ كل الكائنات مشغولة معها بذلك. الدنيا بكاملها متهيئة. ستوقف دورانها كي لا يزعج الصبي

القادم، أو تشعر الطفلة الهالّة بالراحة. ستوقف عواصفها كي تحط أو يهل بسلام.

✧✧✧

ذات خلوة مستحكمة قالت:

- أتمنى أن يشبهك!!

- من؟!

- الطفل الذي سيأتي.

صعقت:

- أي طفل؟! وكيف؟! ولماذا؟!

- لأنك تعجبني..!

وأردفت بضحكة أرخت لإيقاعها العنان.

قلت وأنا أهض بتوتر:

- أمجنونة أنت؟!

- بل مجنون من يخرب أجمل اللحظات، وأوفر الفرص في ذروة الإنجاز..!

نظرت مشدوهاً، فأضافت:

- لنحتفل معاً..! ولا تضع الوقت.. ليس لدينا الكثير منه.. مبروك!

لم تكـــن تتوقع؛ الأمنية شيئ آخر، وشكل آخر، وفي وضـــع مخـــتلف.. لو تتحقق لن تظل أمنية؛ بل تغدو تحصيل حاصـــل.! ربما. لم تكن تنتظر؛ أدمنت صرير الفقد ودوامات الخيـــبة..! لم تكن تعيش لغدك، ولا تحاول استمهال الحاضر الـــذي يفر بلا رجعة أو أسف. و لم تطق الماضي.. ولا تذكره بـــالخير. فهل أنت ممن يحسبون على جداول الحضور، وسجل الأحياء!!

« إذا لم يكـــــن ذلـــك، فـــإن سكان الكرة الدائخة ســـيختزلون. ومعدل النمو المفزع سيصبح معدل تناقص: ولا خوف من مجاعة أو ازدحام..! ».

حين أعادت الاتصال، قالت:

- لستَ حاقداً؛ أعرفك. فقد وافقت على ما حصل..!

بكت ذات يوم:

- أتفرط بي بمثل هذه اللامبالاة؟!

لم تكن لا مبالياً؛ كنت تحترق.. حاولت أن تشرح. لم تستوعب؛ لم تنتظر.. تمنيت لها طيب الإقامة ورغد الحياة..

كان يمكنك أن تعدها بمستقبل زاه: " ستتغير الظروف. ستزداد الخيرات. وسيؤمن العمل الشريف المدر. سنبني بيتنا حجراً حجراً نماسكها بملاط الحب، ونلونه بأصداء رغبات تشبع. ونكسوه برداء ننسجه قطبة قطبة. لسنا طماعين، لانريد سوى ما يلزم وما يكفي لحياة معبرة. سنحصن أوقاتنا بقناعاتنا، ويكون عيشنا ملاذاً لأسرة مثال وملعباً لأطفال يسعدون..!".

كان يمكن أن ترفض، كانت رفضت قبل أن شجعتها:

- فرصة لا تفوتيها فتندم..!

« كنت أعرف ما آلت إليه أعشاش الحب، ونهايات قصص العشاق وأمنياتهم المشلعة. كنت أخمن ما يمكن أن يفعله القِلُّ، وكيف تضيق المنافذ أمام شساعة أحلام العابرين.

لم أكـــن مستكيناً ولا قانعاً. لكن النتائج متوقعة، والمقدمات مقـــروءة بإمعـــان. ليس يأساً وقعوداً؛ بل رأيت الكثيرين ممن ماتوا!!».

لم تـــرتح.. بـــررت لنفسك كثيراً برضى مرر ساعات الوحدة الطويلة. كما مرر السنين بأقل الخسائر الممكنة..!

- أريده شبيهاً بك..!
- وأريدها تشبهكِ!
- هل تقدرني كل هذا المقدار؟!
- ألديك شك؟!
- كأنك لا تريد صبياً!
- ولا بنتاً..!
- أمجنون أنت؟!
- ألا نكفي الحياة؟! ألا تكتفي بنا؟!
- أنانـــية..! لا.. لا أعـــرفك أنانياً؛ لهذا أريده مثلك. لابد أن هناك أمراً آخر تخفيه عني..!

- لن أجني على أحد..!

- وهل نحن جنايتان؟!

- لا.. لم يجـن علي والداي.. لا.. مارسا قناعاتهما_ ربما _ وقد لا يكون ذلك قد تم بقناعة؛ بسبب العادة يمكن، بسبب الرغبة.. البطولات الفارغة.. ترقّب الناس.. طلب جدّي..!!

لا أعرف. ولست الوحيد.. يمكن أن يعدما على جناياتهما المتعددة.

- لكنكم لم تموتوا..!

- لا أريد أن أدخل في سجال حول مشروعية أن نسمي ما نعيشه حياة؛ قناعتي تختلف..!

- وقناعتي أنا؟!

- أحترمها..

- أرأيت لماذا أريده شبيهك؟!

- لا بأس! سنتدارس الأمر؛ لدينا وقت طويل..!

✧✧✧

مثلك يجب أن يكون سعيداً الآن.

بعـــد لحظات سيأتيك المهنئون. سيهديك المسارعون، ويغبطك المحبون. عليك أن تستعد لذلك! عليك أن تلقي عنك لفافـــات الهم، ورداء القنوط؛ لو كانت الحال مختلفة عما هي عليه الآن!

لا بأس! تأكدت على الأقل من أنك لست عاقراً!

هل سيشبهك حقاً، أم ستشبهها؟!

« في كلا الحالين أنا الفائز »

كنت تقول لها ذلك ذات زمن ولى، وكانت تقول:

- بل أنا التي سأكون فخورة.

فهل ما زلت فائزاً لو تحقق. وهل ما زالت فخورة؟!

لم يقولوا إن كـــان ذكراً أو أنثى. لا شك يعرفـــون. لو كان يشبهني ستكون فضيحة." لتكن وما الذي يخجلك؟!

"حبذا لو تكون أنثى!"

ضحكتَ بسخرية: مازالت أمنيتك ذاتها.

الحركة تضج في هذا الجناح الخاص من المشفى الراقي. لو كان الوضع غير هذا، هل كان الوليد المنتظر سيحظى بمثل هذا الاحتفاء، وفي هذا الجو الراقي في هذه المستشفى؟!

أليس هذا أفضل له ولك ولها..

أليس؟!

لا أحـــد يـــراك أو يعرفك هنا سواها..!وهي مشغولة الآن..!

يمكنك أن تنتظر أكثر. أن تقف بعيداً أو قريباً؛ لا أحد ينشغل بك.

المهـــــم ألا تدخل إلى الجناح المميز، فتراك؛ قد يحدث ما لا يريح.. أنت لـــن تدخل! مختار في رغبتك؛ الاقتـــراب، أو البقاء بعيداً!

يمكـــنك أن تعرف كل شيئ من مراقبة هذا الممر الذي يعبره الجميع، ويغص بالجميع.

الـــزغاريد تعلو من جناح الولادات في هذا المستشفى الـــراقي، وضـــع يديـــه على أذنيه، ومضى مسرعاً ليغيب في الزحام.

الـوردة

-١-

حتى لو لم تكن حمراء، كان الأمر سيشغلني كأي كائن يعايش اللحظات والسنين دون تسارع أو إبطاء.

حتى لو لم تكن وردة..

لـــو عشبة تستطيع أن تعتلي جانب الباب المعدني. لو عـــــود يـــابس، أو قشة أو لمسة انتظار، أو نظرة أتحسسها؛ كنـــت سأنشـــغل؛ حتى لو لم يكن شيء يعلو ذروة المدخل القاتم، أو أحد كتفيه، أو أية دعامة من دعامات السور الذي يحرسنا؛ نحن كائنات الغفلة، والوحدة، والبؤس..!

لكنها وردة حمراء..!

أكذب إن أقل: لم أفاجأ. وأفارق الحقيقة لو أقول: إن الأمـــر عادي، أو مصادفة تحدث؛ حتى قبل أن يتكرر صباحاً تلو صباح..!

لو كان عائشاً، ولو في قيد الحياة، لخفّت حدة الدهشة؛ بـــل ربمـــا زادت. ولكنت أولمت لأوبته، وشعشعت الأركان والواجهات لاستقباله؛ لرقصت بأبهى ما كنت أفعل، ما ظللت أرقص أمام خياله..

-٢-

كان ملحاً وكنت مترددة..

لم يكـــن ممكناً؛ ليس خوفاً زوجياً فحسب، بل احترام لكيان أساس من أركان مؤسسة دخلت مرحلة متقدمة بقدوم «ســـها».. صـــحيح أن التغير الذي أحدثته وفادتها لم يكن بـــالقدر الـــذي يكتب عنه، أو يشاع؛ إلا من جهة اهتمامي الـــلازم زمن الحضانة والإرضاع، لكن تعلقي بها تضاعف أيام ابتراد الفضاء الذي يضيق باطراد، في العش الذي كان مقدراً لـــه أن يتسع لكل عذاباتنا وشقائنا، فيما لو كانت مشتركة ومتفهمة كما يحدث لدى كل زواج قناعة؛ لو كان كذلك! كـــل صـــباح كانت تزداد الأشياء قتامة؛ حاولت شد مروان

إلي، أو شـــد نفسي إلى كيان أكبر مني، أتحصن فيه معه به.. وافقـــته على رغباته التي أرهقتني، وعولت على ذلك الكثير.. قصـــرت من رغباتي في مجالات عديدة أخرى، وانكببت على ســـها، أعطـــيها بلا تفكير، وأستنهض كيانها اللدن سنداً أو صـــدى لـــنداءاتي المخنوقة التي لم يكن أحد يحسها حتى سها نفسها. وكان مسعود يلح؛ هل سمعها.؟! هل لاحظها؟! لعله حادس مهم، أو مغامر عنيد، لعله كائن مميز..!

يلح وأتردد.. ليس خوفاً ولا احتراماً للمؤسسة الأقدس فحســـب، بـــل ترويضاً، ربما، لنفسي التي تمردت؛ واجهت الجميع، قاومت كل آرائهم، ترفعت عن أسبابهم وكل ما دار في أفكـــارهم؛ خاصـــة أمي التي أحكمت حصار العواطف، وتمترســـت وراء عـــنادها المر، واختارت.. وكنت أحاول أن أكـــون أصـــلب؛ ألست تربيتها وابنتها البكر..؟! نعم مروان خـــيارها.. وهـــذا ما يجعل للمسألة حدوداً أقسى تحز مواقع أعمق..!

قال مسعود ذات محاولة أقل خيبة:

- الروح طائر حر لا يجوز أن يسجن..

- حتى لو كان جريحاً..؟!

- الجـــرح الـــذي لا يطال الجوهر، لا يبرر الاستكانة للقفص.

- ومن يضمن أن البديل ليس سجناً أكثر تدعيماً؟! التجربة..!

- وهل يحتمل الظرف والعمر مزيداً من التجارب؟!

-٣-

« ولكن..

مـــا الذي أخسره إن جربت ؟! بل ما الذي أربحه من إخلاصـــي لحالي هذه؟! هل بدأ مروان يعجز؟! أم أن برودتي أصـــابته بحمى الابتعاد إلى أحضان أخرى ؟! لم أحاول التأكد مـــــن ظني، وقد تمنيت.. لعل هذا يخفف عني جريرة الممانعة أو مرارة المشاركة.. ».

ويبرر لها-ربما- اقتراف التفكير الجاد بما سيحدث ..!

-٤-

« قال ذات عراك:

- ويل لك إن أحد تطاول على حدود مملكتي، أو اقترب من مقامي.. لن تستطيعي حتى أن تندمي..!

كنت سأقول له: مملكتك الخربة لا تجتذب أحداً. لكني تذكرت مسعوداً وسها، بعد أن أشفقت على نفسي..!

وكدت أقول:

- اقنع حراس حدودك بمقامك، ليدافعوا عنها بجدية.. اقنع مواطنيك أولاً..!

لكني لم أقل شيئاً، وتركته يهدر ويتمتم..".

حتى أنها أعطته نفسها، ولبثت تتشمت بذوائه بين فخذيها اللذين سحبتهما من تحته بسرعة، فارتمى كالخرقة المبتلة.

-٥-

لم يأخذ مسعود مكانه، بل احتل حيزاً شاغراً ابتنيته من أجلـــه، ربمـــا، تمنيت أحياناً أن يملأه مروان/ زوجي لأسكت القوّالـــين عـــلى الأقل، أو لأشبع أنانيتي، لأتفيأ ظل القدر في عينيه وأنتشي، وأحس الأمان.. لكنه لم يستطع؛ لم يحاول.

ورضي بما كان من امتلاك أمنه له صك الزواج بعصمته وصيغته: أنكحتك موكلتي لقاء مقدم...!

المكان لم يكن له؛ المكان الذي ضاق على مسعود ليس قلـــيلاً ولا مفاجئاً. لكن المفاجأة هي في دعوته للامتداد أكثر، حـــتى أني مهدت له البقاع والحواري ..وقعدت أنتظر أشياء أشهى..

الأشياء التي أدت إلى طلاقنا ليست ما كنت أخشاه و لم أخش أمراً إلا أن تذهب سها مني بقوة القانون؛ هذا الذي لم يحصل.. فقد خسرت حرباً، و لم أخسر مصيراً. و (المصيبة التي لا تقتلك تزيدك قوة)..!

-٦-

لـــو كـــان مسعود في أي مكان من الدنيا لما فوجئت بـــتلك الورود التي تتكرر صبحاً بعد صبح.. لو كان حياً لما ترددت في التأكيد أنه آت، ولكنت أولمت وأشعلت ..!

لكـــنه مات، وزرعت على قبره وردة مماثلة لتلك التي كـــان يحـــب أن يرميني بها عن بعد، أو يضعها في طريقي إلى المدرسة، أو يرسلها مع أي تلميذ ..

زرعـــتها ومازالـــت حية؛ كل ما عداها ذوى، تركه الزارعون، وكان كثيراً يليق بالشهيد، ومضوا إلى قبور أخرى أكثر طراوة.. أما ورودي/ وروده فما زالت زاهية، ومازلت أشذبها كل حين، وتراضيني كل آن..

هـــرتني أمـــي على جرأتي.. أمي التي ضاقت أطواقها، لكنها لم تعد بالصلابة ذاتها. بعد ما صارت تعيش عندي، وقد توفي والدي. ونهرها من وافقت على زيجاتهم، ووافقوها على معارضتي، وشمتوا. ثم أصروا على التلويم لو من بعيد..

أمـــي.. نســـيتها؟! كيف؟! هل من المعقول أن تكون الـــورود لها؟! لو كانت من صنف آخر لأبحت لنفسي التفكير بذلك..

(ولكـــن هذا ليس دليلاً كافياً على بطلان الشك، بل أنـــت التي تجعلينه كافياً، لتظلميها، وتبيحي لنفسك الانتظار البهيج..).

أمي ؟! معقول ؟!

لا أنكـــر أني ألاحـــظ أن وقوفهـــا أمام المرآة يطول، جددت صبغة شعرها، عادت إلى ثيابها الملونة..! أمي هل من المعقـــول يـــا أمـــي..؟! لا.. لا يمكن.. لا أقبل فضيحة بهذا الحجم.!

(فضيحة؟! لِمَ؟! أليست حية ما تزال ؟! أليست كائناً يحـــس ويشعر ويرغب ويتمنى؟! من أين لك الحق أن تدفنيها بالحـــياة؟! من قال لك أن قلبها قد فارقته القدرة على الخفق الممـــيز؟! أليست حالها مشابهة لحالك؟! ألا يحاول الجميع وأد مشاعرك بعدما صرت وحيدة؟!

لا تقبلين؟! ستنفذ الأمر عنوة.. تصوري أنّ يحدث ذلك..! ماذا ستكون النتيجة؟! وماذا يمكنك أن تفعلي ..!

تطردينها؟! لا لا يمكن.. أنت في الطريق إلى حال مماثلة والزمن قادم..!

لكنها لن تذهب وتترككما، بل الأصح لن تترك سها، تحبها ربما أكثر منك، سها تقول ذلك، وهي تلمح. لا بأس! فلا أعز من الولد إلا ولده..! هذا تبرير معقول.. لكن الواقع يفصح أنها أكثر منك شفقة عليها. أو تفهماً لمتطلبات هذه السن؛ تتدخل كثيراً، قد تكون غير واثقة بقدراتك؛ كانت كذلك، وما زالت. لم تصرح لأنها معك، وليس لها مأوى آخر. لا تتمنين مثل تلك الأفكار؟! هذا مبرر، لكن ذلك لا يمنعه أو يحد منه. ولا يمكنك العودة إلى جحيم الشجار الذي لا طائل من ورائه؛ من أجل سها يمكنك أن تقبلي ذلك..!

سها.. السن المشكلة؛ في مثل سنها كنت تتمردين وتشاكسين وترغبين..!).

سها يا إلهي..! هل يمكن..؟! هل يجوز؟!

(لم لا يجـــوز؟! لم نسيتها أو تناسيتها..؟! ابنة السادسة عشرة..!).

يمكـــن أن يكون أحـــد رفاقها في المدرسة في الحارة.. يا إلهي ..! لكن؛ لم الوردة ذاتها؟!

ومـــــا المانع ؟! ربما هي إحـــدى ورود المقبرة عينها؛ أو إحدى شبيهاتها..!

سها؟! هي لا تعجبني هذه الأيام؛ لا تأكل كما يجب، لا تدرس كما ينبغي.. تذكرني بحالي، أنسى ذلك أحياناً. ربما لا أريـــد أن أتذكره.. هي جزء مني، حياتي، مبررها..! حين حـــاول مروان أكثر من مرة أن يأخذها إليه بعد أن أكملت الســـن القانونـــية، كدت أجن؛ عملت المستحيل لأثبت أن زوجته لا ترغب، وهو غير قادر على إعالتها وتعليمها.. كان نوعـــاً مـــن الضغط علي. و كان من حسن حظي، وربما من عـــدم ذكائه، ذاك الذي تعودت عليه، وفرحت لهذه المرة من أجلـــه، تصـــريحه: سأخرجها من المدرسة لتخدم أخوتها من

زوجـــة أبـــيها.. و..أمها ستتزوج.. كيف ستعيش مع زوج الأم؟!

أتزوج؟! لا لن أكررها.. الحرية لا تقدر بثمن. .! تجربة علمتني الكثير..

(ولكن ..هل تكملين الحياة وحيدة؟! الآن معك أمك، وســـها.. وبعد حين من الدهر، ستصبحين بلا أم أو بنت.. يعـــني ســـتتزوج هـــل ستمانعين ذلك..؟! ولماذا اهتمامك بصاحب الوردة إذن ؟! لماذا لا تتمنين أن يكون فعله من أجل والدتك؟! بل المنطقي أن تكون المقصودة سها..!).

سها الآن لا تعجبني.. الربطات والتشكيلات في الشعر والثياب ترهقني نفسياً أكثر منه مادياً.. وقد آليت على نفسي أن لا أقصـــر في أي مـــن أمورها.. أهمل حالي؟! نعم؛ أهمل أمـــي؟! ممكـــن.. أمـــا ســـها فلها الإمكانيات كلها، كل الاحتمالات..

أنـــت يـــا سها..؟! ممكن؟! معقول..؟! بعض مني.. كبدي الذي يمشي على الأرض..

أنـــا.. التي ما تزال تمشي على الأرض..ما تزال حية؛ تحس وتكره وتحب.. كما تحسان وتحبان، وتغاران..!!

كـــل صـــباح أهرع إلى النافذة.. تسبقني سها إليها.. لأعـــترف..! وربما تسبقنا أمي من النافذة الأخرى..! نتبادل نظـــرات ذات معـــنى. نبتسم أحياناً.. نتجاهل الملامح أحياناً أخرى..! أحس أن خصاماً يلوح من دون سبب..!

اليوم قررت ألا أنام.. سأسهر حتى..

هـــا أنذا أسهر، وأفكر.. أراجع مسيرة حياة قد يكون اسمهـــا فضفاضـــاً علي حقيقتها.. إلا إذا عنت عدم الموت.. الموت الذي يكاد يكون حالاً بشكل أو آخر؛ لولا هذا الذي يسري في عروقي بسببك..

الـــيوم قررت أن أسهر حتى أراك.. أتعرف عليك أيها القـــادم مـــن غياهب الترع لتحرك دوامات الحيرة، المتعة.. الشـــقاء، التعاســـة..! لـــترمي حجراً في هوة الذاكرة، تحرك ظلاماً..رماداً..!

الحجـــر لا زال يقعقع في الـــوديان العميقة. . تـــرى أما زالت هناك، هنا، حياة ممكنة؟!

الـــيوم سأحل هذا اللغز الذي يشغلني.. يشغلنا..! بتنا نتحاشـــى الحديث، المجالسة، المواجهة..! كل منا تحتال على الأخـــرى لـــتقلل مـــن اهتمامها بها.. لتخفف ربما من معنى حضورها، من قيمتها..! هكذا أصبح بيتنا: نزقاً خافتاً، نفوراً يطفـــح في الحـــركات، ويحـــس من الملامح.. ترى ما الذي ستصـــبح عليه الحال حين يعرف الفاعل..؟ أم أن هذا يتوقف عـــلى حقيقته، شكله.. هل هو وسيم..أسمر..أشقر..طويل .. قصير.. متعلم..؟! راجل..أم راكب..؟! كم سيكون عمره؟! هـــل هو مناسب لي.. لسها.. لأمي..؟! لماذا لا يدق الباب؟! لمـــاذا لا يأتي في موعد آخر في وقت آخر..؟! في مناسبة.. أية مناسبة يفترضها،يدعيها، وسأقبلها،سنقبلها! لماذا ؟! خجِل.. بائس.. مترف.. أنيق.. متهتك.. أليس إنساناً؟!

لم يعـــد الفجـــر بعيداً. مرت ساعات كثيرة من الليل. ســـها تركت غرفتي لتنام في الصالون؛ لم تعد تطيق سهري!

أمي ستنام في المطبخ؛ لا يمكنها أن تنام في حضرة أحد، أو في يقظة أحد! حتى لو كانت حفيدتها. ترى سيسهران الليلة أيضاً؟! وماذا ستكون النتيجة؟! ماذا سيكون ردا فعليهما؟! رد فعلي؟!

من التي ستفرح..؟! من اللتان ستخيبان؟! وكيف سيكون الغد؟! كيف سأعيشه مهما كانت النتيجة؟! وعلّي سأتحمله؟! سنتحمله؟!

لا.. لن أعرفك.. لا أريد أن أتعرف عليك.. لن أسهر إلى الصباح..!

سأنام.. الآن سأنام.. دون أن أتطلع إلى النافذة.. ظن أنهما فعلتا ذلك.. يجب أن يفعلا ذلك. لم أعد أسمع حركة أو همسة أو صوت نفس محموم...

سأنام لأفيق وأطمئن أن وردتك ذاتها في مكانها ذاته..

رمية نـرد

-١-

أراهـــن أن زمـــناً مضى أكثر مما تعلنه التكات الساعية الـــتي تكـــر كحـــبات نرد تلقى بفوضى، منذ أن هـجعنا إلى الفـــراش، وتناوشـــنا نتوءات الحديث في قضايا معلقة كثيرة، يمكـــن أن يمضي الليل كله، وليال أخرى عديدة، دون أن تجد حلاً مرضياً؛ إن بقينا على هذي الحال.. ورغم أن ليالي كثيرة دبت على أعصابنا؛ أعصابي أنا على الأقل، وخرشت مواطئ التسلق، فإن أمر مبادرة الاقتراب لم يأخذ مساره المأمول بعد. ولم يعـــد ممكناً طويلاً طأطأة الرأس، وإطراقة العين غفلة عن ترامح ألسنة الرغبة، أو وقع وخز حدودها التي ما تزال قاطعة رغـــم مـــرور السنين.. ليست الحال مستجدة، ولا فصولها

مستحدثـــة؛ مع ذلك فإن الطريق ما برحت مشوكة، والحل مـــا انفك مرتهناً لقوانين الاحتمالات، أو علاقات التجريب؛ حيث كـــل نتيجة محتملة. وهـــو ما يجعل التفكير في ذلـــك لا يكـــاد يبرد؛ خاصة أن تكاثره في الآونة الأخيرة جعل ملح العلاقـــة يـــزداد، حتى لتبدو معه الطبخة بمجملها عصية على الهضـــم، رغم أن إمكانية التذوق قد تلفت، أو تكاد.. لكن؛ ربما يحدث ما يعيد المياه إلى أخاديدها بنظرة استغفال متقاطعة، أو ضـــحكة مفاجـــئة، أو لمسة متبارئة، أو ركلة عارضة؛ إذ تـــنهمر الغرغـــرات، وتصهل النحنحات، ويفيض النبض بما يوحـــي بأن الحياة حق، والعمر جد قصير.. وتغور الحشرات المؤذية إلى أنفاقها، والأفكار العكرة في وديان الجحيم بما يشي بأن السلام قائم والأمن مقيم.

لكـــن الفصل القارس لا يلبث أن يقتحم دورة المعايشة من دون أي اعتبار لطقوس الفصول الأخرى التي قد لا تتنوع، ولا تطول..

-٢-

في ســـاعات الرضى، غير المحددة أيضاً، يسود التأسي على الأوضاع التي تضيع سدى، والتأسف على ضياع العمر في مناوشات ومناكدات من أجل أمور تافهة، واحتمالات تفسير مترامية الوهم. وتطـــوف أفكار الوئام والود والعواطف التي لا يمكن أن تخبو، كمـــا مـــن المستحيل أن تستبدل. وهـــذا ما يترك تمايزاً مع حالة التمثيل التي وردت ذات درس كتشبيه للاحـــتمالات؛ بـــأن هناك احتمالاً وحيداً من ستة وثلاثين احـــتمالاً في أن يـــأتي وجها حبتي النرد متوافقين، أو موافقين لرغبتـــنا، في كل رمية، ومهما كان عدد مرات التجربة. وقد كـــان المـــبرر الطـــريف أن النرد لا يعرف ماذا كانت نتيجة المحاولة السابقة؟!

لكنـــنا نعـــرف ما كان، ونتبادل نتائج هذه المعرفة، ونـــتوافق عـــلى تحليـــلها وتوصيفها وإدانتها. ومع ذلك فإن احـــتمال ما يلي، يظل على حاله، وربما كانت نسبة إيجابيته أقـــل منها في حالة الزهر. لأن وجه أي منا، وإن بدا واحداً،

فإنـــه في الحقـــيقة أكـــثر منه عدداً. والحالات تبدو متواترة ومتغايرة حتى أكاد أقسم أنها ليست هي؛ أو لست أنا..!

وبالطـــرافة ذاتهـــا تعـــود مشـــاهد أخرى من مرحلة سبقت..!

-٣-

مـــا بـــين الحطـــب المكدس كومات متمايزة نتلملم كصيصان جائعة لنداء أمٍّ اكتشفت كتراً. الدعوة كانت لمتابعة مناقشـــة أمـــر ملح لاشك في أنه قادم. وعلينا تدبر حله منذ الآن؛ كـــلُّ فرصـــة نتصرصر هناك، ويبدأ كل بطرح وجهة نظره:

- أمازحها..!
- ألامسها في أماكن حساسة..!
- أحكي لها نكتة ذات معنى...
- أكشف شيئاً من عورتي..!
- أغني لها أغنية فاضحة..

أقول:

-لماذا كل هذه المناورة..؟! ولماذا لا أدعوها صراحة..؟! أليست زوجتي حلالاً زلالاً ..؟!

لم أكن الداعي لمناقشة تلك المسألة، ولم تكن تبدو بالنسبة لي قضية؛ لكن ما يستفزني للدخول في الحلقة، وربما ما يستثير الآخرين أيضاً، هو تلك الحال التي نؤول إليها آناء المناقشة، وأطراف الحصص الدرسية، وتلك النظرات والضحكات والإشارات والتلميحات التي تدور فيما بيننا، تاركين زميلاتنا في الإعدادية يشاركننا الضحك، أو يستحين، ويتهامسن، ويتلملمن على قضايا ربما كانت مشابهة..؟!

-٤-

هل ضحكتُ.؟! ربما تكون قد تكلمت دون أن أسمع.. قد تسألني: أين كنت شارداً؟!

بماذا أجيب؟ لو قلت لها: في النرد. ستظن أني أضحك منها؛ ليس عندنا نرد، ولم تسمعني

أتحـــدث عـــنه يومـــاً فيما أظن؛ أم أقول: في مكادس الحطب..!

ستنتفض: من كنت تلاقي هناك؟!

وفي أحســـن الأحوال، ستعلق: هل حال الحطب أسوأ من حالنا..؟!

هـــل أجيب: بل في الاحتمالات التي تجعل صفة وراثية ما تعود بعد غيابها أجيالاً ربما..!!

✧✧✧

تنوس الضحكة، حين تستتبع مشاهد الماضي التساؤلي بما كانت تستثيره تلك الخلوات في أوقات تالية من لهاث ذاتي غير مشروع، رغم أنه مشرع..!

هـــذا مـــا كانـــت تؤكده كل الكتيبات التي رآها مع زملائـــه، أو اشتراها من على البسطات، دون أن يكون على علم بأن ما يفعله سرياً مكشوفاً على الباحثين، ومعروفاً لدى الآخرين الذين يحذرون منه، ومن الإفراط فيه، وما يسببه من أخطـــار مستقبلية على الشعر والنظر والفكر، مما يجعل الآلام

النفسية مضاعفة، حين يفيق الفاعل على فراغ وقنوط واستحالة الفعل الحقيقي، وابتعاد نبضاته الحية التي عب منها طويلاً بعد أن تزوج من دون أن يشبع! فهل يشبع؟! يتساءل الآن..

بدأ الأمر عرضاً: الخلاء واسترجاعات الأحاديث والعزلة والوقت المديد... كل ذلك يشكل سبباً وجيهاً. ناهيك عن الطبيعة والغريزة التي صار يفهمها بعدما اكتوى بنار الخيبة طويلاً..

كان الأمر رغم كل شيء مبرراً، هذا ما يمكن أن يفهمه الآن؛ أما غير المبرر وغير المشروع، فهو ما عاد إلى فعله في أوقات الخصام التي تتطاول. وهو ما يجعل تلك الأوقات الصقيعية تعود مع شوك يترامح في كل أعضاء الجسد، وكل فضاءات الروح التي تتضايق. وهو ما يجعل أمر البحث عن طريق للتواصل أكثر إلحاحاً، وأكثر جدية وحرارة، وأقل طرافة من كل التساؤلات التي تبدو الحال معها جدلية؛ إذ تقود هذه إلى تلك، وتلك إلى هذه، بما يشبه مكوكاً يجري في أخاديد مزمنة التخريش والترف والاتجاهات.

صـــحيح أن الأمر لا يخلو من خيبات حتى حين يكون الـــلهاث مشروعاً، وبمشاركة ندية؛ لكن هي حال الرغبة التي تـــتحول إلى فعل، فتتعثر التفاصيل والعناصر والأوقات، حتى تتـــبخر النشوة، فيضاف أمر آخر لا يقل إثارة وقلقاً؛ ماذا إن عـــادت المياه للدفق في الوقت الذي يكون فيها قد انتهى للتو من فعل ما، و لم يبرأ من الخيبة تماماً بعد؟! كيف سيكون حال العسل الدوري الذي يلي كل خصام؟! ومن أين يأتي بالقدرة والخلايا المعسلة، وقد أقفرت المناحل؟!

✧✧✧

هـــل نامت أم أنها تتناوم منتظرة تنازلاً مني؟! أنا الذي يصـــعب علـــيه ذلك.. رغم أنني لن أخسر شيئاً، كما تقول أحياناً، حتى لو كانت المحاولة فاشلة؛ فلدي- أنا الرجل- من الامتـــيازات ما يعوض أو يحصن. أما هي- المرأة - فستخسر كل شيئ في حال صد، أي صد؛ خاصة في أمور كهذه.

لماذا تصعب القضايا إلى هذا الحد؟!أم أنها صعبة حقاً؟!!

لـــاذا تبدو الأمور دائماً بالنسبة إليها رمية نـرد أخيرة؟! إن أصـــابت ربحـــت ورقصت وانتشت وملأت الدار حبوراً وسعادة. وإن خسرت زلزلت الأرض زلزالها..! أما عندي فإن الزهر مجرد احتمال؛ ربما هذا ما يجعل منه مهماً أكثر.

لماذا تختصر العلاقة الزوجية إلى هذا الحد؟! أم أن الأمر كذلك حقاً؟! وما خالفه استثناء

يبرر القاعدة ولا يلغيها..؟!

سمعت الكثيرين يقولون ذلك قبل أن ألعب، وخمنت أني أجيد اللعب. وكنت أنسى دائماً أن الأمر يتعلق بالزهر: كيف سيأتي ؟!

اختلفـــت مـــع الآخرين في تفسير الحال التي يأتي بها الزهـــر. ليس المقصود أرقاماً كبيرة متماثلة متتالية.. بل الأهم أن يكون تناسب بين فرص الحركة وأرقامها. فهل كان خطأ ارتكبناه معاً حين فكرنا بالمواصفات القصوى؟! قد نكون في هذا محسودين!

رغبنا، وبحثنا، دون أن نفكر بأن للأرقام الصغيرة أهمية قد تفوق في بعض مراحل اللعبة أهمية الأرقام الكبيرة، وقد تفسدها أو تدمرها:

(تحب القهوة، وأفضل الشاي؛ تستمتع بطعم اللحم، وأستلذ بطعم النبات؛ لا تستطيع النوم على ضوء، وأخاف من كوابيس الظلام...).

وكان لابد من التكيف، ولا مشكلة في ذلك... هكذا فكرنا، وبهذه السذاجة خضنا معركة التفاصيل كل بالطريقة التي تناسب أدواته..!

-٥-

الآن أحتاج حركة ما، شيئاً ما، يعيد اللعبة إلى مسارها..

صحيح أن الاحتمال لا يزيد على واحد من ستة وثلاثين، والزهر لا يعرف ماذا كانت نتيجة رميته الأخيرة، لكنه يحتاج في بدهياته إلى رمية أخرى...

فمن يرميها...؟!!

في القبو المجاور

في الوقت الذي بدأت تتلاشى فيه هزات المتعة، شرعت تترامح في رأسي أشواك حادة وألسنة محمرة.

لم تكن كذلك خلال كل سنين تشاركنا .. وكنت أطلبه، وأستحثه بكل خبرات القراءات والجوع المزمن للتين الذي صار سلة ملأى؛ كما حسبت. وكانت تعتذر وتتأسف وتعترف بالتقصير، بعدما يفسد التصنع الرغبة المتأججة فتنحدر.

في تلك الليلة كانت امرأة مختلفة: رقصت، تثنت، تطلبت، استزادت.. وهذا ما جعل كل شيء بعدئذ مختلفاً!

✧✧✧

في أمسية ستتكرر، سرقت انتباهي أنة حادة تتالت، تطاولت وتقاصرت بتواتر شهي جذبني إلى النافذة الجانبية

المطلة على زقاق ضيق، ذاك الذي يفصلنا عن قبو يكاد يضيع تحت شرفة واسعة وطوابق عديدة. ولم يكن يشغلنا سوى في حالات التأسي على من تضطره الظروف البائسة إلى سكناه. وشكرنا الله مراراً، زوجتي وأنا، حين كنا نرى هياكل كالأشباح تدخل إليه، أو تخرج منه. بهيئات تختلف وتتبدل في أزمنة متعاقبة، دون أن تكون مناسبة للتعارف عن كثب، أو الاهتمام الذي يتجاوز العلم والخبر..وكنا مقتنعين - بعدما جهدت في إقناعها — بأن حالنا أفضل من أناس كثيرين؛ دارنا ملكنا، ومنسوبنا مرتفع عن الأرض قليلاً. القبو المجاور يؤكد لنا ذلك كلما كدنا أن ننسى تحت ضغط الحاجات التي لا تنتهي.

حسبت أن حدث القبو المجاور عابر؛ ربما كانت دخلة متواضعة المراسم والطقوس التي تعجز ما لا طاقة له، ويحاول تجنبها، إن رضيت الشريكة. ويبدو أن ذلك لم يكن ذا أهمية، فالاحتفال الذاتي كان مميزاً! لكن ذلك الحضور الطاغي

لطقوس الانفعال والتفاعل استمر أياماً وطال شهوراً .بما حول أوقاتنا إلى تقويم مغاير.

الـــرتابة تطبق دوائر السنين يوماً بعد يوم، وشهراً إثر آخر، دون أن يكون ما يميز وحدة زمنية

عـــن تاليـــتها الـــتي ســـتعبر دون اشـــتهاء، أو حتى انـــتظار..العادة- ربما-جعلت الآمال والرغبات أقل سعة من تلـــك التي ترافق حالاً جديدة، وانعطافاً حاداً في كل تفاصيل الحياة والعلاقات، كما هو الدخول في الزواج.

و لم يستطع الأولاد الذين لم يتأخروا أو يتباعدوا إملاء الوقـــت بمـــا ينسي، أو يغافل عن طفيليات السأم التي بدأت تتسلق جدران أمننا، أو لأمَ أصداء الشروخ التي أضحت تهدد ســـلامة العناصر التي ابتنيت علاقتنا على انسجامها، مؤمنين الحدود المعقولة من الأساس والأثاث والموارد.

وبمـــا لا يجعـــل اختلافاً حاداً فيما بين التوقع والواقع ممكـــناً، حسب ما بدا أن من الممكن الاتفاق عليه، أو التوافق

إزاءه على أقل تقدير. وما كانت حال البرود التي وجدتها فيها من الأمور التي يمكن التعرف عليها أو مناقشتها قبل الدخول في الفعل؛ ذاك الدخول الذي يترافق مع دخولات وخروجات كثيرة أخرى تحجم أمر الانشغال به أو إعطائه ذلك القدر الهام الذي يستحق – كما صرت أفكر- من الانشغال أو وربما العلاج الذي كانت – للحق- تدعو إليه! ولكن ما كان قد وصل إلى الذي يتطلب ذلك، كما تصورت. وربما لم يكن وارداً الإقدام عليه بما يظهر أنه نشاز أو أمر جديد على مسببات المراجعات الطبية التي لا تساعد كل المعلومات والأخبار السابقة حول السلوك أو القول أو الوقائع على قبول ذلك .

✧✧✧

- الناس ينظرون إلى فوق يا زوجي العزيز، لا إلى تحت..!

قالت مرة في مستهل شجار غير معلن، امتد وقتاً مهماً قبل أن يستعر. وكانت- كما يبدو- قد لاحظت انشغالي

بالقـــبو المجاور، سواء عن طريق النافذة، أو عن طريق الأسئلة الـــتي خمنـــت أنـــني اقتصـــدت فيها. لكنما يبدو أنها تتالت وتكررت. أو ربما - وهذا ما بدأت أشتم وشوشاته- كانت قـــد صارت رائحة القبو تخيم في الثغرات المفتوحة في رؤوس تبحث عن شيئ مغاير. لم يكن ليأتي إلا من القبو، على الأقل، في هذه الحارة!

حـــين تكـــررت تعليقاتها الساخرة التي تتخللها مرارة العتـــب، أو سموم الاتهام، حاولت أن أدخل في فلسفة التحليل والتفســـير وصـــولاً إلى التبرير الذي أملته أو الذي أملت أن بمقدوري الوصول إليه دون إعلان صريح أو اعتراف مجرِّم.

ليســـت القضية في التسمية، فوق أو تحت، وليس مهماً الوقوع في أنفاق الأفكار المطروقة، أو المعاني المتبناة.. ربما دون وعـــي فاضح، بل المهم أن تتجه صوب الجهة التي تريح. وهنا يسقط المعنى التقويمي لصفة العلو أو الانخفاض...!

قالـــت ربمـــا بعد تحضير كما فهمت من أسئلتها التي تصاعدت:

- تكلمـــت كثيراً عن الحال الوسط التي أنت، وبالتالي نحـــن نخوض فيها، قانعين خانعين، وأنها السبيل الأساس لحياة مستأمنة مريحة ، ورددت أن شهادتينا المتوسطتين واختلاطاتنا الوســـط ومداخيلنا الوسط ومسؤولياتنا في الوظيفة والعمل، كلهـــا ستجعل منا أسرة نموذجية بمقاييس هذا العصر، أسرة لا تعدم المشاكل ولا تنعدم بها ..!

تذكـــرت قولاً مشهوراً كنت أردده دائماً قبل زواجنا وربما في محاولة جادة للإقناع الذي لم يتطلب أكثر من ذلك: إن أيسر السبل للحياة الهادئة السعيدة، الانشغال بالعمل وعدم التطرف في الأمور.

- ولكن ...

أضافت في مرة ثالثة.

كنـــت مقتـــنعة معك بذلك، بل ربما كان هذا مبدئي الذي لم يكن واضحاً لدي، وعبرت عنه بمقولاتك تلك أفضل

تعـــبير..ولكـــن ، مـــنذ اليوم الأول صار لدي ما يقول بأن التطرف يمكن أن يكون كامناً ...

هـــل كانت تقصد محاولاتي النارية لإشعال مقارباتنا بما يفوق قدرها عليه أو حتى معرفتها به..؟!الكني بدأت أتضايق، حين صارت تضيف:

- والتطرف الكامن أخطر بما لا يقاس !!

ضـــبطتني ذات مـــرة على نافذتنا ملصقاً خدي على زجاجها، وكانت امرأة القبو ترقص بانفعال كما ولدتها أمها، مـــع أصوات موسيقا حادة، المنورة التي تنخفض عن السقف دون ستار..

فغـــرت زوجتي فاها مندهشة أو غاضبة لم أستطع أن أميز، فقد تعلقت عيناها في المنورة طويلاً، قبل أن تسددهما إلي وتغلق الستارة وتدخل بخطاً مضطرمة، دون أن تكلمني...

لم تكنْ تلك أول مرة فقد شاهدتُ ذلك كثيراً ،بحضور زوجها الذي يستحثها بعبارات كثيراً ما تتلى في مناسبة مماثلة.

قلت لزوجتي مرة وقد قامت متثاقلة:

- لماذا لا ترقصين؟!

نظرت باستغراب:

- أرقص؟! وما المناسبة؟! ولمن أرقص؟! وهل أنا مجنونة لأرقص بلا سبب؟!

- ترقصين ، نعم ترقصين هكذا بلا مناسبة...

وأضفت كخائف من أن يضبط بجرم:

- ترقصين لي؛ ألا أستحق؟!

قالت، وقد وضعت يديها حول خصرها:

- ومنذ متى تحب الرقص يا حضرة الأوسط؟!

لم أجب، وتركت أوسطها يهتز بتوتر، وأدرت لها ظهري.

سألتني السؤال ذاته، حين لاحظت انشغالي براقصات يتكرر مرورهن على الشاشة الصغيرة، وتكرر انسحابي من المواجهة لاعناً الوسواس الذي جعلني أذكر لها أمر الرقص.

لم تكـــن أول مـــرة أراهـــا ترقص ، وبالتالي لم تكن دهشتي لرقصتها بل لمداهمة زوجتي، ولمعرفتي — فيما بعد- أن الراقصة كانت بمفردها..!

✧✧✧

كنـــت، فيما مضى، أحسب أن للموقع تأثيراً مهماً في الســـلوك والانفعال، وردود الأفعال لقاء الأحداث والأقوال والفصـــول الحياتية المختلفة. وكنت أرى أننا في خير مقبول، وأن مـــن حق سكان الطوابق العليا أن يبالغوا في الرفس فوق رؤوسنا في أي وقت يشاؤون ..وقد عبرت عن ذلك لزوجتي مـــراراً ، وإن بطريقة مواربة: نحن لا نملك سلطة عليهم؛ هم فـــوق ونحـــن تحت.وليس ذنبهم.. وهذا ما جعلني أفكر في ســـكان القـــبو، بما لا يمكنهم معه مجرد الابتسام، ناهيك عن الضحك أو القهقهة أو الأنات الماتعة.

قالت:

- لو كان تحتنا بشر، هل كنا نفعل مثل ذلك ؟!

- الحمد لله أن ليس تحتنا بشر، فكفانا شر الأذية!

- أنت تعترف إذن أنهم يؤذوننا؟!

- لا لســـت مـــتأكداً ؛ ربما كانوا يقومون بطقوسهم العادية المشروعة، ولا يعلمون بما يسببه لنا ذلك.

و لم أكن متجنياً؛ فالكثيرون ممن سكنوا القبو المجاور قبل هـــذه الأســـرة المبتهجة، كانت وجوههم كالحة، وخطواتهم متثاقلة، ولا تكاد الكلمات تخرج من شفاههم الملتحمة سلاماً أو رداً لتحـــية آن الالـــتقاء العارض ..! ولعنت الحظوظ التي تلقي بمثل هؤلاء البشر في هذه الكهوف، بل إن تلك الكهوف أكثر تهوية وانشراحاً بآفاقها المفتوحة واحتمالاتها المقيمة.

وفكـــرت في الشر الذي يدعو بعض البشر لابتناء مثل هذه المغاور لاستغلال بشر آخرين .

مـــا أكد لي مثل هذا الشعور أن صاحب المقسم المجاور كان قد استغل الوجيبة التي من المفترض أن تفصل بناءينا وفق القـــانون والنظام. وبالغت في شتيمة من صالحه على ذلك في الســـبلدية الـــتي تغمض عيناً وتفتح أخرى كيلا تفوت مخالفة وقعـــت أو ستقع دون ثمن ! وهذا ما جعل المسافة التي تفصله

عـــنا لا تتجاوز المترين اللذين تركهما صاحب بنايتنا ، ذاك الذي يتقيد بالنظام دون رقيب أو ممتن !

لكـــن، وبعد أن صارت منـــورة السقفية تضج بمـــا لا يـــزعج، صرت ألوم صاحبنا على نظاميته وتطرفه في تطبيق القوانين ..!

لـــولا ذلك، لكان يمكن التفكير في سر السعادة المميزة التي تجتاح القبو، حتى في غياب الزوج، من قرب أكثر..

وازداد الـــتفكير هيمـــنة بعدمـــا تفاقمت حال الحنق والابتعاد في بيتنا، وصار التقارب حتى في طقسه الثلجي غاية لا تطال. وامتلأ الوقت بالصقيع ؛ خاصة بعد أن غادر جيراننا القبو المجاور، بعدما نقل الرجل إلى موقع آخر. وامتد الصقيع طويـــلاً، حين عجز الجار عن إيجاد مستأجرين يمكنهم السكن في هذا القبو بعد أن رفع بدله ، وخاصة بعد ازدياد الحكايات والوشوشـــات عن خلافات زوجية استشرت في معظم بيوت الحـــارة الـــتي اشتعلت ويئست من إضاءة المنورة ، وهجرت

الـــنافذة الجانبية إلى نوافذ أخرى. لم تحرك مواقد الجمر الذي ترمد أو يكاد..!

في تلك الليلة، وبعدما أيقظت رقصات زوجتي مساماتي الغافلـــة المستأبية وأطلقت عنان التوقد إلى أقصاه، انفتحت في ذهني تلك النافذة فأسرعت إليها..

كانـــت المنورة مضاءة، وشاب يرفس الهواء، تماماً كما ولدته أمه...!

خيانة..!

-١-

حين ذوى بين أطرافها المشرعة، وسقط جوارها كخرقة مبتلة، كانت نشوتها تتصاعد متابعة احتلامها الذي اعتادته منذ فكرت بطريقة للاستمرار. لكنها سرعان ما تكومت جواره تحت وقع سوط يهوي من عل، مع التساؤل الذي يخاتلها في كل مرة، ويلقيها من ذروة متعالية، دون أن تستطيع فكاكاً: هل هذه...؟!

-٢-

لم يعبر في خلدها يوماً أن مثل هذا الذي يجري يمكن أن يكون.. منذ سنين نضوجها الذي أينع على غفلة، فلم تعش فترة مراهقة كالعديدات من أترابها. وبدت عليها علامات التمرد الخافت، والعناد البادي المتنامي، بعدما لم يمض

زمن طويل على يتمها المبكر، كما أصرت على تسميته، رغم احـــتجاج أمها التي لا تقبل مقولة الترمل بوجود الزوج حياً، وإن في قيد امرأة أخرى..!

تلـــك الضرة التي استطاعت إذكاء مقت لديها لا يحد لأية أنثى ترضى أن تكون تالية؛ يرافقه بغض مماثل لرجل، أي رجل، يرغب بامرأة أخرى..

وما يصعد من هذه المشاعر ويضاعفها في ذهن الشابة، تلـــك الأســـباب التي كانت وراء واقعة الأسرة. والتي رددتها الألســـن على مسامعها طويلاً:(الحارة كلها تعرف آن يريد توفـــيق مقاربة امرأته من ممانعتها وصراخها، وعلائم الازرقاق التي تظهر على وجهها وأجزائها الظاهرة).

كـــان ذلك قبل أن تستفسر من الأم التي جاهدت على الإنكار، قبل أن تفصح الضرة عن سعادتها بقدرتها على إشباع (فحلها) الذي عاش عمره بعلاً..!

حـــين تعـــود بها الذاكرة عميقاً تكاد تلامح حال يأس تكتـــنف أمها، وحال نفور تهيمن على والدها الذي لا يكاد

يعجبه أمر؛ حتى الأولاد الذين تتالوا دون فوارق عمرية كبيرة، لم يكن يصيبهم منه رضى أو حبور، وهو على رأسهم. وتستغرب الآن كيف تسنى لهم الحضور في مثل تلك الظروف، وكيف أمكنهم الاستمرار في بيت زوجي لا تقوى جدرانه الحجرية المضاعفة على تحمل ضغوطاته، وتنوء أخشاب سقفه تحت وطأة حرارة نفثات ساكنيه وأمانيهم ورغباتهم؛ كل في اتجاه.

لكن الأمر لم يكن هيناً، فالذكر الذي يليها يعيش حال فصام مقلقة، وأخواتها اللواتي يصغرنها تزوجن لدى أي طالب..!

أما هي فقد آلت سنواتها إلى مصد لكل تبعات ذلك، ودريئة لكل ردود الأفعال التي لا تنتهي حتى تبدأ من جديد. ولو لم تسعفها جديتها وعنادها في الدراسة للحصول على الشهادة الجامعية، لما كانت قادرة على المتابعة، ولكان مصيرها كمصير أخواتها، دون مرجعية أو رصيد..

« ولكن، ألم يكن ذاك أحسن؟! ربما كنت أعيش حالاً مختلفة عن حالي الآن، وتجربة قد تكون أقل وطأة وندماً.».

-٣-

لم يكن الرجل في عمر أبيها فعلاً، كما تناهت الأصوات. وليس من عمرها، هذه حقيقة لا تريد هي أو أمها المناورة حولها؛ إنه أكبر من ذلك بفارق مقبول. لم يشغلها هذا الأمر. لكن الذي شوش أفكارها قبولها به؛ صحيح أنه ألح في الطلب، ومديرها في المدرسة، وتعرف أنه يحترمها، وزوجته زميلتها التي لم تكمل عامها الترابي بعد. كل هذا تعرفه ولكن..!

لو لم يكن والدها موجوداً على بعده، لكان ممكناً مقاومة رغبة أمها، وقد قاومت ذلك طويلاً، وكانت الفرص أفضل، والشروط أحسن.

لكن الأشياء جرت كما لو أن ما من علاقة لها، أو رأي؛ هل هو يأس السن أم كلام الناس أم الخوف من الوحدة المؤكدة المنحدرة إليها بعد رحيل الأم واشتداد وطأة صرع الأخ؟!

« كيف سأواجه نظرات زوجة أبي؟! وماذا ستقول؟!»

أمست امرأة أخرى؛ مثلها..!

لكن؛ لا.. الحال مختلفة؛ المرأة الأولى ميتة؛ هكذا بررت لها الأم كثيراً وطويلاً..

ســـتقول: وأولاده؟! ستخدمهم بعدما لم تعد في سن ينجب؟! لا بأس هذا أفضل من حرمان الأولاد من أبيهم؛ ولن أحرمهم الأمومة؛ لست من دون قلب..!

كل التبريرات بدت واهنة، باهتة، واخزة..

حـــين بدأت معركة إثبات الوجود منذ الليلة الأولى.. أحست بزميلتها /المرأة التي تعرفها، تستغيث تحتها..!

تغـــير سرير (غرفة العمليات) كما كانت زوجة أبيها تســـميها؛ تغـــير موقع الغرفة ذاتها دون فائدة؛ رأت في عينيه ملامحها، وفي حركاته طريقتها، وفي لمساته مسامات جسدها، وفي صوته —إن نادى —اسمها. أحست أنها تقوم بفعل شائن؛ تمنعـــت، تراجعت، ترددت؛ هاج أكثر. كادت تصرخ، تعالى صراخ أمها في فضاء الذاكرة المعتم! وتراءت صورة الكدمات

والازرقـــاق في مختـــلف أنحـــاء جسدها. أحجمت. زاد من هجومه: اصرخي، تأوهي، ألا تتألمين؟! ألا تحسين؟! هل أنت حجر أم أنثى من لحم ودم؟!

« تصـــامت واستســـلمت لصراخه الذي علا ابتهاجاً ونشوة..».

-٣-

هل هذه خيانة أخرى؟!

لقد تغافلت عن كثير من الأفكار القديمة، وقبلت على مـــرٍّ أمر أنها ليست مذنبة، ولا لوم ولا عتب في الدخول على ضـــرة ميـــتة! ولكن الوضع الزوجي كان يزداد نشازاً؛ فهو يتصـــاعد شراهة وشراسة، وتعجز عن إرضائه. ولولا حكاية أمها لتوقفت عن الفعل تماماً. وكانت في كل مرة تحاول ذلك تدفعهـــا للقبول ذاكرة مجهدة متخمة بما لا يسر ولا يسمح. لكـــن القـــبول وحده لا يكفي، فالرجل يريد منها مشاركة حقيقـــية، يطلب تبادلاً وتواشجاً وتماهياً في لحظات مسكونة

بـــاللذة والـــتخويض بما لا قبل لها به. رغم أنه (لا عيب في الحـــلال) كمـــا قالت أمها حين جاءت لتوصيها قبل دخلتها الوصـــية التي نكأت جراحها مرة أخرى، وأعادتها فتاة جاهلة غافلة قاصرة..

وفكرت في العودة من حيث أتت، ولكن أنى لها ذلك وأشياء كثيرة تغيرت؛ فالوالدة دفنت منذ زمن، والوالد أوغل في الغـــياب.. ستعود ليتكفل مصيرها وأمر الحوار حولها الأخ الذي لا تكاد تميز له حال صفاء من عكر. وهذا لوحده كفيل بإعادتهـــا إلى بئر الجهل عمياء معصوبة العينين، أكثر من تلك الوصـــية التي تكاد ذكراها تردمها في هـــوة مظلمة.. وهـــي لا تحمـــل تلك الأم أو ذاك الأخ مسؤولية ذلك، ولا تجد كبير جـــدوى من تحميلها البيئة والظروف والذكورة. لأنها لا تجد في الأنوثـــة تلـــك القـــيم التي يمكنها أن تدافع عنها بحماسة واقتناع.. لقد فكـــرت، وحاولت. لكـــن الأمثلة سرعـــان ما تنهك همتها، فتنأى بها عن مرتكز ومأمن؛ تماماً كما يحدث لها الآن! وليس من سبب يمكن أن تقنع به من يسألها، فيما لو

تركـــت البيت.. فهـــو يحترمها فعـــلاً، ويعاملها حسناً. ـ قد لا تعطيه منة في ذلك. فهـــي لم تترك له فرصة ليلوم أو يؤنب أو يغضب؛ لا مـــن جهة الأولاد، ولا من جهة أشياء البيت، أو الضيوف، أو...

إلا أن الأمر في الليل، حين يقترب موعد الفراش، يغدو كـــل شـــيئ مختـــتلفاً؛ تبدو كأنما لا تعرفه. وتداهمها رغبات وأمنيات، لو تحقق أي منها، لكان، أو كانت، في موقع مغاير. كانـــت تلاحظ عليه الحنق والسخط والمرارة. ويضاعف هذا مـــن قلقهـــا، ويحيل كل شيئ أرضاً مزروعة حصىً وأشواكاً وهما يتمرغان فوقها حافيين عاريين..

هل هي خيانة حقاً؟!

يعاودهـــا الســـؤال المر، فيهبط بها سحيقاً، من شامخ عال؛ كيف تسنى لها ذلك..؟!

هـــل هو حل؟! أم رغبة؟! أم خوف من امرأة أخرى؟! أم مـــن رجوع غير محسوب؟! أو بقاء بلا طائل؟! أم وهـم؟! كان ذلك قبل كثير من السنين، وكانت ترتاح إليه، يدرسان

معاً، يرعيان سوية، ويكتشفان أسراراً شهية.. فتى يمتلئ نضارة وحـــياة، بارعاً في الإقدام، وذكياً في التراجع، وأميناً على ما تـــريد إبعـــاده عنه، شاكراً ما تقدمه محسناً وفادته، وفياً لعهد قطعـــه، فجـــاء مذكراً به، ونجمات فرحة على كتفيه. وقد غادرها منكسراً، هي التي مانعت، ترددت؛ لم تكن تستطيع، وقد باغتها النضج والمسؤولية والنفور: لو أنها لم تعِ..!

كـــلام ليس له بعد معنى، ولا مبرر. كما في قولها: ليته لم يقـــتحم بطائرته ذلك الخط المدعم..! ليته غير طريق حياته وحياتي..!

هل هو الحل؟! هل هو الجرم؟! هل ...:

هـــي وهـــو بين نجمات فرحة، وفوق أرض لا تبين، وتحـــت سماء لا تنحدر إلا حين يداهمها ذلك التساؤل المر.. فتســـقط جوار الرجل الذي فرغ من انهماكه للتو كومة من النشوة الخامدة؛ خرقة مبللة بالخوف والخزي والندامة..!

خطـايا

ســـتقول إنها كانت مضطرة، وإن الظروف السيئة هي الســـبب؛ قد يكون ذلك صحيحاً، وقد تعترف لتخفف من آلامهـــا الذاتية، أو تبكي ربما، وتنوح وتطلب الشفقة والرحمة لأنهـــا بريـــئة ومظلومة... هل سأصدقها؟! هل كل اللواتي يشهقن بدموعهن صادقات؟! أم أنه سلاح غريزي حقاً ؟!

بـــل ســـتظل صامتة، لن تجيب على أي سؤال، ولن تضعف أمام أية محاولة لحملها على الكلام..!

ســـتحيرني؛ فما الذي يجبرها على الصمت، هل فعلت حقاً وتخاف من الاعتراف؟!

ليس الاعتراف سهلاً، هذا صحيح، ويحتاج جرأة أكثر مـــن الـــنكران، صحيح أيضاً؛ لكنه مريح.. هل الشريك في الفعـــل مهـــم إلى درجة تخشى أن تنطق باسمه أو تبوح بأي

حـــرف يســـتدل به؟! أم تخاف عليه، تشفق على الرغم من فعلته؟! سامحته، ومستعدة أن تضحي من أجله. لأنها..

إلا إذا كـــان الصمت وسيلـــة للتعبير عـــن الغضب أو القـــرف مـــن هذه المحاكمة برمتها! وبالتالي هي تستحق العقوبة مضاعفة؛ هل هو إضراب عن الكلام؟! لتتحمل تبعات ذلك إذن!

كل هذا ممكن أن تكون فيه ومنه المتهمة التالية..

عرفـــت كل ذلك وخبرته ولدي تجربة في معالجته رغم عـــذابي معه. لكن أخشى أن تأتي من تضحك، تقهقه، تلقي اعترافها في وجهي، وتشير إلي...

كيف سيكون موقفي ؟! وكيف ستكون حالي؟!

مـــن زمن أعيش الرعب من موقف مشابه سيأتي. منذ زمن أقول: علي أن أواجه، علي أن أتحدى! ولكن ما تلا من أحداث، وما استجد من مواقف جعلني أتريث..!

لم أكن أتوقع أن تدور الدائرة كل هذا المقدار. لم يخطر في بالي أن أكون حكماً، وقد عشت عمري متهمة، وقضيت ليالي عديدة وساعات كثيرة في تبكيت وتأنيب ذاتي دامٍ، وكم تساءلت بيني وبين نفسي: هل حقاً يعرفون حقيقة فعلتي؟! هل هم على دراية بما اقترفت؟!

وأعود لأعترف: لا شك في أنهم يعرفون؛ الجيل السابق عايش القصة، فاعلها وتفاعل معها؛

تسلى بها، وربما تشفى! ومن غير الممكن ألا تكون قد نقلت إلى اليافعين تربية وآية لأبناء الجيل التالي/الجيل الحالي..

إذن ؛ كيف صدر قرار بمنحي مسؤولية المحكّم في جرائم الشرف؟!

لم أسع إلى ذلك ؛ الكثيرون يعرفون، يقرون بهذا ؛ لم أجرؤ على طلبه، لم أقو على الظهور عياناً أمام المارة الذين ذاقوا الطعم وهم يأكلون تماماً، لذا لا خوف عليهم..!

هل غفروا لي؟! سامحوني؟! تجاوزوا غلطتي، جريمتي؟!

حـــتى لو فعلوا، فهل أغفر لنفسي؟! هل أسامحها؟! هل ألـــوم الظـــروف وأحملها المسؤولية كلها؟! وهل يحملونها هم أيضاً حتى يقبلوا بي؟! أم أن قبولهم كان معتمداً على خبرتي في هـــذا الميدان؛ الخبرة التي لا تشرف. أنا أقول هذا؛ نعم لدي خـــبرة، عشت التجربة، مرة كانت، قارسة لحظاتها المستعادة، مدمرة لو تتكرر..!

وهـــل في هـــذا إدانة من قبلهم مستديمة ؟! وصلب لي عـــلى مجامر الفضيلة التي تحرقني بقوانينها، تلك التي أحاسب الآخرين وفقها؟! هل هو عقاب دنيوي أبدي؟!

ولكـــن لا يـــبدو منهم ما ينم عن ذلك، فهم جدّيون معي، خائفون مني، طيعون لإرادتي، ومنتظرون لأحكامي التي لا راد لها، ولا حائل دون تنفيذها..!

أحـــياناً يداهمني الضحك من أحوالهم. وأخرى تراودني الشـــماتة والتلمظ بما أراهم فيه من صغار، حتى من دون أن يرتكبوا فعلاً شائناً.

أكـــاد أسخر من تمسحهم ورجائهم وتذللهم بلا سبب ظاهـــر أو حاضر. وأقول في سري: إنهم يستحقون أكثر من ذلـــك، فهـــم لا قـــدرة لهم على السمو، ولا أهلية للإقناع بالحضور والجدوى. ولكن سرعان ما أعود إلى ذاتي وأقول:

وهـــل لـــك من الأهلية ما يجعلك تقومين بهذا الدور الآن؟!

حين أستوقف الزمن لأسترجعه مسافات محاولة الوقوف على حقيقـــته، والاســـتناد إلى قـــناعات تريحني، أعجز عن تلمس الأوتاد التي تساعدني على تسلق تلك المنحدرات التي وجدتني أزحـــف عند أقدامها. مع أن باستطاعة أي عاقل محايد- كما كنت ومازلت أظن – أن يقف على مراكز استناد تجعلني أنجو من قيعان التبكيت، ووديان الندم. فهل كنت الضحية حقاً أم كنـــت القاتلـــة القاصـــدة؟! وكيف صرت الحاكمة الناطقة بالشهادة الحق؟!

لم أكن أريد ذلك، ولا أدري كيف وجدت نفسي وسط النهر المحجر، تتقاذفني أمواجه صوب ضفتين قارستين

صخوراً وأشواكاً وانعطافات تضيق وتتوسع. هل طلب مني ذلك ؟! أم هي التي طلبت؟! أم كنت المبادرة إلى فعل الخير استجابة لما خمنت أنه سبيل لإسعادهما وإسعادي! أم أنه، بما آل إليه فيما بعد، أسلوب مارسته لإثبات وجود تحتاجه من هي في مثل حالي؛ كما سرى القول بعدئذ؟! كانت تجمعنا أوقات مشتركة، عايشت لحظات الانطلاق التي كانا يبديانها معاً، وتفهمت الرؤوس الخصيبة التي تتقافز، أو تريد أن تنتشي، أو يجب أن تسود في أفقهما المشترك.. أحببت الحيوية في كلامهما، والنشوة في نظراتهما والمعاني المترامحة في تعليقاتهما وحركاتهما ومصادفات اللقاء التي ساهمت في ترتيب بعضها . حتى عشت حالاً ماتعة معهما.. حالاً حاولت جاهدة الارتقاء بها، أو الحفاظ عليها وصونها في أقل تقدير.

عاتبتني مرة لأني لم أقدم على فعل من أجلهما؛ هكذا قدرت وأنكرت. وعاتبني مرات لأن علي أن أكون أكثر قدرة على فهم النساء، وأكثر رغبة في مساعدتهن؛ خاصة أن المبادرة

لا يمكن ولا يجوز أن تنطلق منهن صراحة، وإن تراءت الإشارات التي تدعو أو ترغب أو تشجع...

وعاتبني لأن من الواجب المفروض أن أتفهم الواقع، وأستنتج أن علـــي الإقدام على فعل ما يؤدي إلى لقائهما العـــزيز المديد. لأن علي أن أفهم أن أمر الصد فيما لو تعرض له الرجل، أي رجل، سيؤدي إلى صدع في شخصيته، وشروخ في واجهته قد لا تلتئم. وعلي أن أسعى كيلا يحدث مثل هذا له!

هكذا.. وببساطة: لكل منهما مشاعر وأحاسيس يجب ألا تراق. وعلي أنا بحالي الكسيرة أن أحافظ على توهجها لديهما وصونها في بوتقة واحدة!

كنت بلا أحاسيس، كما حاولا إدانتي، حين حاولت وفشلت. وحين تبخر الهلام الذي جمعهما، وتلاشت الخيوط التي حاولت جاهدة نسجها متناسية أية رعشة ذاتية، أو نبضة خاصة أو إحساس منطلق من نفسي المعذبة، أو شعور مشع من مساماتي النباضة بالحياة التي خذلتني، وأنا في أوج حاجتي

إليها، وذروة تمثلي للحظاتها التي قرست؛ هل فكرت فيه حقاً؟! هل كنت أفكر فيه قبلاً ولا يمكن أن يحس به إلا المبتلون بلواي؟! أو أناس حساسون استثنائيون كما كان هو؟! كما لا يدهش إذ قابلتني الحياة منذ مستهل وجودي فيها بما هو صعب التعايش معه أو الاقتناع . هل كان يشغلني ؟! ربما؛ لكن ليس على الصورة التي انتشرت عني، ولا الشكل الذي بدت عليه في الواقع ولا النتيجة التي انتهت إليها علاقتنا..

آلمتني حين قالت:

(تخطط لهذا الأمر منذ البداية، استخدمتني طعماً؛ أنا لم أفكر فيه إطلاقاً. هي التي دفعتني إلى ذلك..!).

تألمت من أجلي ومن أجله. فهو لم يقل مثل هذا الكلام عنها. ولم يكن متعلقاً بها أكثر مما كان يبدو من تعلقها به؛ قالت لي، عبرت، ثم أنكرت كل شيئ..! هو لم يقل عنها ذلك، ولم يقل عني مثلما قالت أيضاً؛ لكن لم ينكر ما قالوا، لم يعلق. وهذا ما جعلني أحنق عليه، وأتألم منه. خاصة حين أكدوا أنه تورط معي، بل ورطته، تحايلت عليه، أوقعته في

حبائلي.. وهل يصدق غير هذا؟! هل يمكن أن يفكر شاب مثله/ رجل مثله بشبه امرأة مثلي؟!

نعم كنت شبه امرأة؛ لو كنت امرأة تامة لكان رضي أن يتزوجني بعد الذي حدث، ولانتهى الأمر؛ لم يرض. ولم ألمه كثيراً. لأن مـــا من أحـــد يقبل منه ذلك؛ كلهم قالـــوا ما يشابه هذا الموقف. من له علاقة أو قرابة، ومن لا يمت بصلة إلى أي منا...

لمته حين لم يتراجع، هل فوجئ بحالتي؟! هو يعرفها أكثر من الجميع.. لماذا لم يتوقف؟! فكرت في هذا كثيراً. ولأني أعرفه، لا أقول احتراماً، وربما إشفاقاً، الذي قالوه: أراد منها وطراً أو قضاء حاجة!

فكرت في ذلك، وقلت: ربما أراد أن يعوض خسارته معها بربح، ولو كان معي. ولكن إذا قبلت هذا التفسير، علي أن أقبل كل التفسيرات الأخرى، بأني أردت أن أعوض خسارتي الكبرى في الحياة بجائزة كبرى منه..!

لا.. هو لا يفكر بمثل هذه الطريقة؛ يقولون: تدافعين عنه بعد كل الذي حصل، أتراك تحبينه؟!

أحبه..؟! لا أعرف! ولم لا ؟! ألا يحب من كان مثله؟! أم أن من الصعب على امرأة مثلي أن تحب رجلاً مثله، أو أن تحب أصلاً..!

أنا أخطأت إذ جعلته ينساق معي.. أشفقت عليه؛ هم لا يصدقون، حزنت حين رأيتها تصده وتختار من هو أقل منه.. أمجنونة تلك المرأة أم عنيدة؟! كثيراً ما يعطل العناد التفكير، وكثيراً ما تضيعه العاطفة أيضاً..!

أخطأ حين استطرد في علاقته معي، تعلقه بي..! وصبرت.. لأني لم أمت وقتئذ، لأن أفكاره كانت قد أعادت تكويني، ابتنت ما ضمر من أعضاء، وأذابت ما زاد حجمه بما لا يفيد، وألغت تأثيراته القاتلة التي أكاد أستشفها من كل عابر أو ملاحظ أو نظار.. الدم الذي سرى في عروقي من بعده كان مختلفاً، والإحساس كان مغايراً، واللحظات التي كان الفراغ ينعب فيها اكتست واكتنزت بما يسلي، يغني، يمتع...

وقبرت الفضيحة بعيداً، دفنت الجنين في مكان آخر كنت قد عرفته من قبل، خدمت فيه من قبل ومن بعد.. خدمت طويلاً حتى عدت أخيراً.. بعد أن أرهقتني الغربة، وأضناني الهروب. عدت لأعيد شبح كائن إلى ظل اللوحة، عله يجد مكاناً يؤويه، يذوي فيه، ويعطي أنفاسه الأخيرة لكائنات أخرى تخصه من بيئته وفيها وإليها.. وكان الجو مختلفاً: العلاقات تغيرت، والحوادث التي لم تعد فضائح لا تعد. ولم تكن المشكلة في السيرة بل في العلاقة التي تنتج عنها، والحلول التي تقتضيها..

لماذا اختاروني إذن؟! اعترافاً بالظلم أم مسامحة أم غفراناً؟! أم عجزاً عن إيجاد من يثقون به بحكمته بعدله...؟! وهل أنا صرت ذاك الذي يمكن أن يجد في ذلك وهل أصلح له؟! إن جاءت اللحظة التي ستسألني فيها تلك الفاعلة عن حالتي، وعن الطريقة التي تخلصت فيها من فضيحتي، وما مبرر وقوفي في هذا الموقع.. ماذا سأقول؟! وكيف سأواجه؟!

إلى الآن لم يحـــدث، وإلى أن يحدث علي أن أجـــرم أو أصفح أو أهم أو أشكك... علي أن أكون ما أرادوا أن أكون! وما يمكنني...!

هل صرت بـــلا عواطف، بـــلا أحاسيس؟! هل هذا ما يقصدون من تكليفي؟! ألا أصلح بعد للحياة تجربة ومعاناة؟! حتى أتفاخر بالزهو في أصدائها المنكسرة...؟!

المعبـــر

« كنـــت أنظر إلى ملامحه الساهمة بين عبارة وأخرى، متحفزة للتوقف حين تظهر بادرة تخلخل هذا التوازن.. ليست المـــرة الأولى. ولم أكن أتوقع أن الأمور ستأخذ هذا المنحى. ولم أنزعج »:

(وصلتْ إلى حافة النهر؛ المياه عكرة، ولا تبدو حجارة القاع. ودوي بعيد يغمغم: « لقد تأخرتُ، كان علي أن أبكر أكـــثر. لماذا انتظرته كل هذا المقدار؟! لماذا تأخر؟! وبعد كل ذلك أعود خائبة لأجد النهر غاضباً يكاد يخنق الممر. سأقطعه؛ علي أن أقطعه.. تأخرت عليه.. سيغضب؛ ربما احتاجني، هل أفاق؟! ».

وقفتْ على الحافـــة التي تغيرت ملامحها؛ النهر يرتفـع. لم تعـــد تمـــيز معالم المعبر: « ماذا أفعل والعتمة تتكاثف من

حـــولي؟! » كأنما أغصان الأشجار المتخاصمة تحاول بعثرتها فتهبط إلى الأرض؛ حتى الجذوع بدأت تضيع من مسار النظر:

[صبية صغيرة بلا خف، يطير فستانها مع الهواء، وتفر عقـــدة شعرها ودموع عينيها.. ترتعد على حافة النهر. المعبر الأرضـــي مســـتحيل؛ تأخرتْ أيضاً. كانت ستنام عند الجدة لتســـتمع إلى حكايات جديدة؛ هكذا حسب أبوها الذي عاد بعد أن انتظر طويلاً، وساعد التلاميذ الآخرين على العبور. في العادة يتولى هذه المهمة أي من رجال القرية في الأيام المماثلة. المعبر الآخر لم تجربه بعد: شجرتان تميلان من جانبي الضفتين، يتلاقى غصناهما فوق منتصف النهر: المعبر الاحتياطي حين يجن النهر؛ وكم كان يجن..!!

لم يكن من حل آخر. تسلقت الشجرة التي تصعد من جهـــتها، انزلقت من على جذعها المبتل مرات. نجحت أخيراً في الوصول إلى الغصن الآخر. هزته الرياح بعنف، تعلقت؛ في الأســـفل تلاطم المياه. في الجوار تصارع الأغصان. وأصوات تغمغـــم في البعيد. أغمضت عينيها، لم يكن لصراخها معنى.

فســكنت، واستســلمت لهيئــته التي حضرت، ويديه اللتين حملــتاها. فتحــت عينيها بعد لأي لتجد نفسها على الضفة الأخرى]).

تمــلمل قليلاً، تفرست في ملامحه كعادتها. بدا شيئ من الاســتثارة. لم تســتطع أن تميزه: هل هو رضى أم انزعاج؟! وبعد أن ترددت في المتابعة، لم يكن أمامها مناص:

(نظــرت إلى أعلى المعبر الشجري لم يعد له أثر بعد أن سقط من فوقه مسعود رفيق مدرستها، وغار مع المياه في لجة الــوادي. وتقصــف الغصن بحمدان، وكان قادماً في إجازة عســكريــــة، وأتى غضب مباغت على إحدى الشجرتين بعد ما حسب القانطون أن النهر كف عن الحنق، فاقتلعها من جذورهــا. الــنهر غــير بعضاً من مساره، وابتعدت الضفة الأخرى قليلاً.

لمــاذا تأخرت؟! لماذا لم يحضر؟! لم تعتد على مثل هذا السلوك. ولم يعتد رجلها على غيابها الطويل. ترى هل يعرف أيــن تذهــب؟! هل يرضى؟! تفكر أحياناً بذلك، وتتمنى ألا

يكـــون على علم، رغم أنها تخمن، لكي يبقى في نظرها أكبر. هـــذا يـــزيد من تعاستها التي تسعى إلى التخفيف منها بذلك العـــبور المتكرر. تبحث عن شيئ يرد الروح في هذه الضفة. وتعـــود لتشعر بالرضى. توازن مقلقل؛ من الصعب أن تثبت الكفـــتان عـــلى منســـوب واحد. هذا ما يجدد حرمانها من الطمأنيـــنة. وهـــذا مـــا يدعوها لممارسة طقوس تجهل كيف اهتدت إليها، أو كيف ستنتهي.

سيسألها؛ ماذا ستقول؟! وكيف سيكون رد فعله؟! ماذا سيكون مصيرها؟! هذا إذا ما وصلت إليه..).

توقفت عن الكلام وقد لاحظت توتراً ما.

كـــيف وصلت حكايتها إلى هذا المأزق؟! هل كانت تقصـــد؟! أم أن الحكاية هي التي فرضت ذلك؟! هل خانتها خـــبرتها الـــتي اعـــتادت أن تعتمد عليها في اختيار القصص وابتداعها وفق الشخص الذي يصغي؟!

لم تكن تقصد؛ كانت تتسلى. تحكي لنفسها، تفترض مســـتمعين وتحكـــي. تتصور ملامح وتبوح؛ لم تكن تقصد.

جاؤوا، استمعوا، فرحوا، قنطوا، غابوا؛ منهم من عاد، منهم من تبخرت أخباره..

وتحكي.. لم تكن فرحة دائماً بحكاياها. لم تعد الحكاية سلسة يسيرة. صار البعض يطلبون حكايات من نوع محدد، فترفض، ويغضبون. ويهددون.. لم تتوقف. حتى صارت حكاياتها حكاية الآخرين، فيأتون من كل الجهات. وعبر كل المسالك! لم تعد مرتاحة: الزمن والفصول والسحنات وردود الأفعال والعادة التي تمتص الكثير من الإثارة، والتكرار يبعثر ما تبقى..

لكن هذا الذي أمامها، ومنذ أن دخل صامتاً متردداً، هز شجرة الأصداء فتحفزت. وشرعت تحكي بانتباه إليه شديد.

كثيرون تركوها في متن الحكاية؛ ملوا، أو قلقوا، أو.. لم تأبه كثيراً؛ قد تكمل الحكاية لنفسها. أو تتنفس الصعداء وتتوقف.

كانـــت تعجـــب أحـــياناً من قدرتها على الغوص في التفاصـــيل التي ربما لم تعشها، و لم تمارس طقوسها مع أحد. ويستلذون، ويستزيدون فتزيد.

وفي أحـــيان أخـــرى يتعذر عليها أن تبرح السطح، أن تـــتجاوز المـــألوف مـــن الأحداث والأقوال، والمشروع من الرغـــبات، والمعـــروف من المشاعر، فتمتعض، وتتعثر. لكن مسار حكايتها مع هذا الشخص مختلف.

(كـــان كل شيئ يمكن أن ينتهي ذلك المساء: انزلاق مبـــاغت، أو صاعقـــة لا تخطئ، أو انتظار أنيـــاب مفترسة، أو موت مجمد.

تفكر في نفسها، بل في ذاك الذي يعيش؛ يمكن اعتباره كذلك! ينتظر؟! ليست متأكدة. لكنه يحتاجها. تحس ذلك، تصر على ذلك من أجل أن تظل جواره. قدره مرتبط بها. هذا مـــا تؤكده كل الأحاديث والذكريات. لا تريد أن تتأكد من الوثـــائق كي لا تضطر أن ترهن إلى قنوط دائم، أو إحساس فوضوي مضيع. لا تستطيع احتمال أن لا أحد بانتظارها حتى

في حاجـــة. لا تقدر على مواجهة الحياة- ما تبقى منها- دون ارتـــباط. جربـــت، كان صعباً. حدث ذلك في مقتبل الحياة، فكـــيف يكون الحـــال في منتهاهـــا؟! حتى لو كـــان مريضاً أو عاجـــزاً أو هائماً أو محايداً؛ حتى لو كان من دون طلبات ملحة، أو متطلبات قارسة؛ هل هو كذلك حقاً؟! لا بأس به، لا مـــناص مـــنه. وهذا ما يدفعها للخروج دون انتظار رأيه. ودون أن تواجهـــه صراحة. تتركه حين ينام، أو يغشى. من حســـن حظهـــا أو حظه أن هذه الحالات تتكرر. ربما بتواتر مخـــتلف التوقيت والزمن. تتركه أحياناً لتذهب إلى ذاك الذي تحـــتاجه، يمكـــن قـــول ذلك. إذا لم يكن الأمر كذلك، لماذا تـــتعرض لـــلمهالك ومقلاعات الكلام كي تكون معه؟! هل يحـــتاجها هو أيضاً؟! تفكر بهذا؟! تخمن، تتمنى. لماذا لا تعود إليه الآن فتنتظره، فتبيت جواره؟! لا يمكن ذلك، حتى لو عاد، لا تســـتطيع؛ لـــيس وقـــته لها دائماً، المساء على الخصوص. لآخرين الحق به، ولن تقدم على إيذاء أحد. لن تعتدي. الحياة تقـــوم بهـــذا ألا يكفي؟! لن تنتقم من الآخرين؛ ليس مهتماً

دائمـــاً، لـــيس مـــتجاوباً. لكن لوجوده أكثر من ضرورة، ولحضوره حتى لو اقتصر على الذاكرة أكثر من معنى.

صحيح أنه خذلها هذا اليوم؛ يحدث ذلك أحياناً؛ ليس موعدها محدداً؛ لا تحب التحديد. ربما كانت تلك مشكلتها. لا تســـتطيع تسليم نفسها لموعد دائم. هذا يعطيها مبرر عدم الارتباط، ويؤمن حجة قد تساعدها في الاستمرار بين ضفتين. وهـــذا مـــا يعطيه سبباً لعدم التبكيت، وانتفاء الشعور الممض بالإيذاء أو ما هـــو أقسى. لكنه يحضر، حين تحضر. لا يغيب إلا مضطراً؛ نادراً ما يحدث. ينتظرها؟! لا تريد أن تهب نفسها تلـــك القـــيمة. ولا يحب أن يعترف كي تبقى الحال غائمة، والحكاية أشهى. هذا ما تفكر به الآن بعد أن لم يعد لمثل هذا التفكير جدوى..).

لقـــد صارت وحيدة منذ زمن بعيد. هذا ما حسبت. لكـــن الواقـــع شيئ آخر، وما تحس به تكاد لا تصدقه. فهل تشـــكر هذا الذي ساق تفكيرها بهذا الاتجاه؟! وقاد حكايتها وفـــق هذه المواقف والأحداث؟! من يكون هذا الذي بدأت ملامحه تتقد.. من يكون؟!

لم تفكر في كل المتلقين الذين حلوا وذهبوا؛ لم تستغرق في أي من شخصياتهم. كانت تكتفي بملامح خارجية، وردود أفعـــال ممكـــنة؛ لم تبحث عن حقيقة أي منهم. و لم تعر ذلك اهتماماً خاصاً كما يحدث لها الآن..!

لم تخوّض في خضم يتلاطم؛ لن تنجو، ولن تقوى على الانتحار. لو كان بوسعها ذلك فعلت منذ سنين.. منذ خيبات تكررت وانكسارات تعددت، وقنوط وخسارة وفقدان.

(لم تشـــق العـــباب بعصا أو غصن شجري. لن تتوهـم قدرتها على ذلك. لن تعود إليه. هل ستنتظر هدوء العاصفة؟! انخفـــاض ماء النهر؟! قد يطول هذا. هل تنتظر عابراً ماهراً؟! ذلك يحتاج قدرة مميزة لمن يمكنه أن يقطع التيار العنيد بمفرده، فكـــيف إذا كان سيجرجر شخصاً آخر؟! لكن.. ليس الذين يـــتأخرون في مـــثل هذه المناخات كثيرين. ولا الاحتمالات وفيرة.

الـــبروق الـــتي تشق السماء تضيئ المكان حولها بما لا تســـتطيع عيناها تحمله من نور. لكنها استهدت إلى ركن يمتد

فوقه نتوء صخري يحمي من قطرات الماء المحمومة، والقطرات الأخرى التي تتساقط من على الأغصان التي حاولت أن تستحميها.

ليست حالها هذه وحيدة في ما تعرفه ذاكرة النهر. فكم من الأشخاص ضاعوا آناء العبور! كم من المؤونة استعصت على الوصول إلى أفواه بانتظارها! كم من المسافرين توقفت رحلاتهم عند هذا المقطع.

كان المعبر مشرعاً للحركة، مفازة وحيدة لقرية يتيمة. لكنه كان ألِيفاً بعابريه من شتى الأصناف، وفي مختلف الحالات. ما زالت أنفاس الحاجات ، وإلحاح الخطو، وأصداء الرجاءات تتعالى من الجوار؛ ما فائدة أن يستمع إلى المزيد من لا أمر لديه سوى الإنصات؟!

لم يعد الحال كذلك؛ الطريق التي امتدت في جهة أخرى غيرت مسار كل شيئ. وتركت لعابري هذه المخاضة صفات متفردة وظروفاً غير معتادة. لم تبك؛ لم تصرخ. ليس لكل ذلك جدوى؛ لن يسمعها أحد.

قعدت تسترجع الأحداث والذكريات. تحكي حكايات كـــل الذيـــن مروا من هنا.. من هناك. الذين لم يمروا، وقد يمرون.

قعـــدت تحكـــي.. الوقـــت بـــارد، والأجواء خانقة، والضجيج إلى ازدياد.).

قعدت تحكي..

بدأت حركات المستمع الوحيد تتزايد، أعضاؤه أخذت تـــدب فـــيها الحـــيوية. ملامـــح وجهه ترتسم أكثر. عيناها مســـددتان إليه. لم تفعل مثل هذا قبلاً. لكنها الآن تصر عليه. لا تستطيع سواه.

(كانت تحكي.. ترفع من صوتها وتخفضه كي تسمعه فقـــط.. كـــي تـــبعد الأصوات التي يلقي بها الليل الضاغط والعاصفة المجنونة مرعبة قارسة.

تحكـــي مغمضة العينين؛ هل انسجمت مع الحال؟! هل تناســـت الوقـــائع والعناصر المحاصرة؟! كم مر من الوقت؟! أحست بشيئ يحملها.. لم تفتح عينيها. لعله الماء الذي وصل ركنها، لم تعد تحس بالبرودة. لعلها تحلم.. تتوهم..!

هـــل تفـــتح عينـــيها؟! هـــل هـــي حقاً على الضفة الأخرى..؟!

لم تتأكد من الملامح؛ في أول لمعة برق كان أدار ظهره. بدا منكباه رأسه، هيكله..).

عيـــناها تغالب المشهد أمامها. تتوثب أشياء كثيرة في هذا الهيكل الذي يستمع.. يستثار.. يهم بالنهوض.

« هل سيذهب؟!

لماذا الآن؟! لينتظر.. سأكمل الحكاية..! ».

أية حكاية؟! ومن أين جاءت بكل تلك الأحداث؟! لم تحـــك مـــثل ذلك قبلاً. لماذا؟! ألم تتذكرها؟! ألم يحرك أحد مفتاحها؟! ألم تجد من يستحقها؟! من تعنيه؟!

ولماذا يذهب؟! هل تطلب منه أن يبقى؟! لم تفعل مثل ذلك قبلاً؛ لن تفعل..!

« لا.. اذهب.. انتظر.. تعال.. اذهب.. امض..!».

لم يكـــن يسمعها. غاب منكباه.. رأسه.. هيئته.. عن المدى المجدي لنظرات تنوس..!!

الفهـرس

الصفحة

المطمورة ٣
العازف ١٦
يدي ٣٢
قوس نصر ٤١
الصداع ٥٢
الوريث ٦٢
الوردة ٧٤
رمية نرد ٨٨
في القبو المجاور ٩٨
خيانة ١١٠
خطايا ١١٩
المَعبَر ١٣١

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

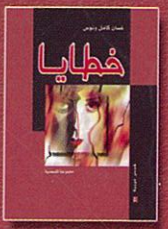

غسان كامل ونوس

مجموعة قصصية

مطابع وزارة الثقافة

سعر النسخة داخل القطر ٦٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ١٣٠ ل.س

٢٠٠٥